نساء تراب

جميع الحقوق محفوظة

الكتاب: نساءٌ تُراب

تأليف: زيد الشهيد

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

تصميم الغلاف: أمينة صلاح الدين

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق- بغداد ١١٨٣ لسنة ٢٠٠٩

طباعة. نشر. توزيع

دمشق/ جوال: ٠٩٤٤٦٢٨٥٧٠- ٠٠٩٦٣

Email: akramaleshi@gmail.com

زيد الشهيد

نساء تراب

قصص قصيرة جداً

الفهرس

رؤيـة ٧
يقظة الزمن الدفين ١١
١- تنتظر ١١
٢- تأمَلْ ١٤
٣- تتفجَّعْ ١٦
هنالك.. الناي ٢١
أ- انكفاء ٢١
ب- شجن ٢٣
ت- قدر ٢٥
ث- مصير ٢٨
عصافير الروح الرهيف ٣١
١- رذاذ لهيف ٣١
٢- رفل ٣٥
٣- توصيف محايد ٣٨
نساء تراب ٤٣
١- القبض على ماء الضياع ٤٣
٢- على طبق من شواء ٤٨
٣- ذاكرة عين ٥١
٤- تأثيثُ فضاء رماد ٥٣
٥- لوعة وازدراء ٥٧

من بئر الأسى ٦١
١- ما هكذا أردتُ لك ٦١
٢- خذلان ٦٤
٣- صفحة ذاكرة ٦٦
٤- مناجاة ٦٨
٥- سريالزم ٧٠
٦- بيت مقفل ٧١
من فيوض العشق ٧٥
١- انعتاق ٧٥
٢- احتشاد ٧٧
٣- بيت مقفل ٧٩
٣- حب معاصر ٨٢
٤- غمامات الغسق ٨٢
٥- حب معاصر ٨٤

دماء منجل خثِرة ٨٧
مناجاة ٩٣
لقاءات عابرة ٩٦
مسافات الغيب ٩٩
شغف ومتحلقون ١٠٣
عراء الشيخوخة ١٠٧
١- فرار الغزلان ١٠٧
٢- سليل التهالكات ١٠٩
٣- وباء الوهم ١١١

الحزن العراقي.. أبدية الألم

هو الحزنُ العراقي هذا الذي يحفرُ وجودَه على صوان التاريخ، أو هي متواليةُ الأسى هذي التي كلما ركبت موجةَ الشمس لاحتساء ماءِ الألق والخروج من ربقة الرماد امتدت لها يدُ الظلام لتجرّها إلى جوف الديجور لتُجرِّعَها طعمَ المرارة ورملَ العلقم.. ولد الأسى مطراً مدراراً يرشق وجهَ العراق ، ونما الحزن شجرةً وارفة تهمي طلاً من الوجع الثقيل على القلوب المتكئة أو المتظللة من هجير الزمن اللافح. فأوشكَ أن يكون عُرفاً لا يمكن نقضه أو حقيقةً لا يمكن تجاوزها لتتشكل حصيلةً مؤداها أنه منبتُ رثاءٍ لا يشي برفرفة أمل أو مرور نسمة فالتة من عنق زجاجة المستحيل.. لذا تراجعت هتافاتُ المتفائلين ، وذوى عودُ الحالمين ، وبات علينا نحن الذين نمسك القلم واجب أنْ نؤرخ بالكلمة ونصوّر بالأدب

حقبةً نعيشها مشحونةً بالبغض الصارخ والكراهية المتفشية والحقد المتفاقم والسادية المتسيدة ؛ مُترعة بالمذهبية والحزبية والدم المُراق ، والعودة إلى البداوة الجهلية والجاهلية.

في هذا الخضم الخارج عن حدود التخيل ولِدت أغلب نصوص هذه المجموعة لتؤرخ وتقول نماذج قصصية ، مستلّة من هديرٍ جارف من حياة عنف لا يتحملها عقلُ عاقلٍ ولا يتقبلها نبيهٌ سامع... وكما في رصدي وتصويري السابق (مجاميعي القصصية السابقة) كانت المرأةُ تتقدم تظاهرةَ الجراح وتتلقى سكاكين التشفي تطعنها الخناجر المشحوذة بالحقد الطائفي فتتركها تهيم في عالم سادي مجنون تصرخ فلا أحد يسمع ، وتترجى فلا يُرد لها وعليها الرجاء ، واقعةً في هوةِ الذل ، ومنكفئة في قرارات الضياع. ليس لها سوى بقايا ذكرى من ذاكرة تعبى أوهنتها تواليتُ المآسي وأطاحت بتوهجاتها عواصفُ الأحداث.

نعم قد يبدو هذا البوح تشاؤمياً ، والتصوير قاتماً ، والإفضاء كما لو أنه يغلق أي مخرج ولو بحجم ثقب في جدار لكنّها الحقيقة أجسِّدها بالكلمات وأعلنُها بياناً احتجاجياً ليطَّلع عليه قراء ما بعد جيلنا وحقبتنا السوداء كي يتحاوروا في أمر وضاعتنا التي تقرب من سلوك

حيوانات الغابة المتوحشة ويرسموا وجوهنا كما تتخيلها مَلكة الخيال عندهم ، فنحن تركنا إرثاً ثقافياً ومعرفياً عمره سبعة آلاف عام واستقبلنا ثقافةَ حقدٍ وبغض وكراهية دون أن نقف لنتملى إن كان الذي جاء بكل هذه الثقافة الغابوية - لنشربها ونتشربها بذائقة تنأى عن ذائقة البشرية التي ترفع الرؤوس لتنهل من رواء ضوء الشمس وعسلها الشهي الرائق - مُحبّاً لنا وراغباً أنْ نكون في جادّة السلام والأمان والرفعة أم هو يتربص بنا ، نحن أبناء الوطن الواحد ، سعياً لتفتيتنا وشرذمتنا بغية إلحاقنا به ضعفاء ، تابعين ، أذلاء؟

نعم قد يبدو هذا البوح منبتَ قلقٍ وتطيّر على حياة يُراد لها أنْ تتجسَّد أياماً للبهجة والسرور والسلام لكنَّه ترجمة لروح يرى أنَّ عليه أنْ لا يرميه إلى أغوار التيه ولا يجعله نثاراً لا قرار له في مسارات الذهول. فإضافةً إلى قلقنا الوجودي مبعث خوفنا من المستقبل يتجسّد قلقٌ آخر يتنامى نزعات عدوانية بدوية تسحق هيبة الإنسان وتطيح بخمائلَ جهدٍ كثيراً من أجل جعلها حديقةً غنّاء ، تسحر الناظر وتقول للقادم: تعالَ! عُب نهلاً من نمير مائي وسُح جذلاً في ربوع بهائي.. لا نريد العودة إلى الماضي ، سواء بطريقة الفلاش باك أو التداعي ، لنرثي أنفسنا بجنَّةٍ فقدناها

وهناءة عيش خسرناها بل أن نلتفت ونستدير لنرى إلى شعوبٍ أعدّت للمستقبل برامجِ فاعلةً تصنع سعادةً متراغية سعياً لعيش بهيج مفعم بانتشاء ، وانتهاءً بمرافىء يكون إنسانُها خالياً من فايروسات البغض ، والحسد ، والكراهية.

هذه النصوص أردتُها احتجاجاً على رداءة سلوك حياتي لأمة قال عنها الله ((خير امة أخرجت للناس)) من أجل أن تستعيد مكانتها ومجدها الغابر ، وأمنية لوطن أن ينزع ثوبَ الحزن الأبدي ليدخل إلى كرنفال الحياة السعيدة مُحناة كفوفُه بحنّاءِ السرور ، ونساء ينجلي عنهن ليلُ العتمة الطويل الجاثم على صدر هيبتهن ، ويتهشم من أمام تطلعاتهن جدارُ محق كرامتِّهنَّ المُستلَبة ، وذلِّهُنَّ المستديم.

زيد

يقظة الزمن الدفين*

(١)... تنتَظرُ

لو قُدِّر لها النهوضُ والتحرُّكُ لاختارت جهةَ النهرِ ، وخلّفت عالَمها المحنّط مستعينةً بالماءِ وجهاً تحاورهُ وروحاً تبثّهُ آهاتِ السنين المتهافتة بجمودٍ سرمدي جاثم ، تسألهُ عن فحوى الأمرِ وما آلَ إليه حالُ الحبيب الذي تركَتْ لديه أنفاسَ اللقاءات الحميمة ، ثم طفقت بعد زمنٍ تتساءل: أينَ أصبحَ؟ وما جرى له؟ أما زالَ يتكئ على أحاديث تحاورا خلالها عن مستقبلٍ رسماه وصممّا على أنْ يجسِّدانه ارتشافاً أم أنّ ذلك غدا من حكايات النسيان؟

سمعت تعثراتِ خطى فاستدركت أمراً.. تنصتت لتتسمَّع.. وصلتها ضرباتُ معاولٍ تجاور القبر ، وهمهمات تتبعها تمتمات.

صوتُ رجلٍ يخاطب فتى:

- هيّا أسرع ، أنهم على وشكِ الوصول.

فيجيبه الفتى:

- قالوا عنه متوسطَ القامة.. إذا كان كذلك سننتهي من الحفرِ قبل وصولِهم.. سنُرضيهم و...

ولم تسمع بقيةَ الكلام. ضاع وسطَ تصادم شفرةِ الفأسِ بصلابةِ الأرض.

همست في سرّها:

- مَن يكون؟... فتواردت أسئلةُ صدى يملأ البرية ويشيعُ : مَن يكون..من يـ..

استمرت منصتةً تطردُ ثقلَ الأعوام وتجاهد لنَيلِ لحظاتِ وعي يُبقيها عائمةً في هُلامِ تجلّي الموقف.

- ها هُم قادمون.. أبصرهم من بين الشواهد.. ألم تُكمل بعد؟..

ارتفع لومُ الرجل ، فردَّ الفتى من عمقِ الحفرةِ المستطيلة بصوتٍ كأنّهُ آتٍ من غورٍ سحيق:

- نعم ؛ الآن تمَّ كلُّ شيءٍ.. ألا تنزل معي؟

تذكّرتْ وداعَها الأخير لهُ ، مثلما أعادت مشهدَ دمعتين نزلتا كحبتي غيثٍ من عينيه وكلاماً بلونِ الوفاءِ

الخالص يقول: "بعدَكِ لن يكون لها طعمٌ. ولستُ بمتأخرٍ عليك."..

وظلّت تعومُ في سرابِ الانتظار... لا تدري كم طالت أذرعُ الزمن ، وما عدد السنين التي تعاقبت ، سوى أنها كانت تستيقظ على انهيالِ معاولٍ هنا وهناك ، أدنى حدود المقبرة فتفزُّ لديها جملةُ الأسئلة المُعادة: " مَن يكون؟.. هو أم غيره؟.. هل هو الآن بذلك البهاء كما تركتهُ أم "يا دار كم فعلت بكِ الأيامُ؟" [لقد اعتادت النهوضَ مع آخر كفٍّ تهيل حفنةَ التراب فتروح تبحثُ في يبابِ البريّة – بين الموتى الجدد – لعلّها تراه فترتمي عليه ، تولي لرأسها مهمّة الاتكاء على صدره ، ثم الانطلاق بوحاً ، مفضيّةً ألم الفراق ، ورهبة الوحشة ، وثقل اللحظات.]

تناهى صوتُ الرجل مُرحباً ، مُقدِّماً كلمات العزاء المعهودة ، ثم مُتحركاً استعداداً لإيلاج الضيف في حفرةِ المنتهى استعانةً بالفتى وفقَ التقليد الذي حفظهُ ومارسه باضطراد..

أرهفتْ أقصى مجسّاتِ السمع سعياً للتعرف على اسمِ الراحل من أفواهِ المشيعين فربما يكون هوَ... لكنَّ الوجومَ كانَ صفة المتحلقين ، والصمت يهمي رذاذَ

سطوتِه في فضاءِ النفوس جاعلاً الموقفَ جللاً ، تاركاً الجميع في اكتنافِ الذهول.

وكانَ عليها – كآخرَ رجاء – التقاط كلمات الدُّعاء التي ستندفع من فمِ الرجل الدفّان يُعلن الاسمَ واسمَ الأمِّ لتدركَ حينها صدقَ وعدٍ قطعهُ لها ؛ وإلاّ سيُطعَنُ قلبُ أملِها بخنجرِ الخيبةِ وتتهالك – واهيةً/خاوية – فكرةُ اللقاء الأبدي لحبيبين تعاهدا على الوفاء صدقاً والتزاماً.

(٢)... تأمّلُ

لأولِ مرّةٍ يراودُها شعورُ بالوحدة فتحسُّ بوحشة القبر وهمودِ الأجداث.. في إذنيها تتحنطُ الأصواتُ الحيّة لأفواه المارّةِ ويصمتُ نفيرُ العربات خارجَ سورِ المقبرة فتنفضُّ من حومةِ الأملِ وتروحُ تستدعي طيوفَ الأحزان لتتزاحم عند نافذةِ تطلُّعها معيدةً إليها ساعاتِ جفائه ، ولمحات لامبالاته الطافحة في عينيه ؛ ثم تذمره من تتابعِ أسئلتها عن فحوى ابتعاده المتكرر عنها ، ومواعيده التي طفقت تتثلّم. [شرعت تستعيد أياماً صرفتها لائبةً كنمرةٍ كسيرةٍ على جمرِ التجنّي والجفاء حتى انجرفت نحو شرفةِ اليأسِ

المميت. ثم اكتشفت غَب تشبّثٍ ضئيل أنَّ فراقَهُ حتّمتهُ نـزوةُ شباب ابتـدأت بفضولِ التطّلع لحفنـة أقـران نـزقين أعلنوا نتيجةً الموجة القرائية لفلاسـفة وجوديين أنَّ الحيـاةَ ليست إلاّ نزوة مارقة - تحمل صفاتٍ متعتها وجمالها ، وجـذوتها المتأججـة -فسحة حسيرة اسمهـا "الـشباب". وما بعدها لابدَّ من إحكامِ التسريعِ نحو النهايـةِ المحبّـة: إمّا بـشرابٍ قاتـل ، أو خنجـرٍ مـشحوذ ، أو اسـتعانة بـصعقة سلك كهربـائي تيقنـاً مـن أنّ المتبقـي مـا هـو إلاّ عبـثٌ يتـسربلُ بالهبـاء.].. أفحمـت جُهـدَها لومـاً في إثنائـه عـن هكذا توجّهِ خاسر وتطّلعٍ مرفوض تـستجدُّهُ أفكـارٌ هدّامـة هدفها تقويض جهدِ الجمعِ الإنساني التوّاق للخلود.

ولـم تُجد المحاولةُ..

ولـم ينفعُ اللومُ..

بتراكمِ اضطهادهِ العبثي لها انحدرت نحوَ تخومِ العـذاب القاتـل ، ، فشيّعوها في سـاعة متهالكـة مـن أوقـات الخيبـة ميتــةً بعمــرِ الزهــور النَّــضرةً/ النــوّارة. [وبموتهــا ســاورها اطمئنــانٌ ، وراودتهـا قناعـةٌ أنَّ أيامـا أو أشـهرَ معـدودات تـصرفها متوسـدةً حجـارة القبر وسـيأتيها ــ مُطبِّقاً فكـرةً جـاهرَ بهـا بجـوارحٍ مُحتدمـة ــ مُعانقـاً/ تائقـاً. لحظتـها

ستقضي معهُ حياةً أبدية ، ، شابّان منفتحان على أقصى آفاق الوجد ، يغرمان في صهيلِ من الحبورِ والجذل.. حسبت موتَها فوزاً لصالحِها طالما أنّهُ سيأتي على سحابةِ زمنٍ قصير].. ساكنو القبور المجاورة يبصرونها تواربَ نوافذَ عينيها تطلُّعاً وانتظاراً فيتأسّون ؛ لاسيما وانَّ بوحَها بدنوِ مجيئهِ قد تكررَّ لمرات.. لم يكونوا راغبين في إطفاء نورِ أملها بركلاتِ التكذيب ، كما أنّهم تحاشوا عرضَ تجاربِهم الخاسرة في انتظار أحبابٍ لهم أعواماً وأعوام بلا جدوى..

الأيامُ تمرُّ.. وتمر... ومعها مرّت السنين...

خُطى المارة تتسارع وتتسارع..

نفيرُ العربات يتواصل ويتواصل ، بينما الأجداثُ استمرت نائمةً على يقظةِ همودٍ أزلي وزمنٍ يتجمّد كالصلصال.

وظلّت هيَ تنتظر.. وتنتظر.......

(٣)... تتفجّعُ

سكونٌ يريم. وصمتٌ ينشرُ غبارَه التحنيطي على جثوماتِ رموسٍ تتناسلُ ثم تبيدُ بفعلِ توالي رموسٍ أُخر تزيحُ ما قبلَها.

الكلُّ نيامٌ بعدما أيقنوا الخاتمة ، إلاّ الفتاة ومنذُ أعوام ما فتئت تنتظر..... ودّعوها بعمرِ الخامسة عشرة ، وقالوا: "سنأتيكِ".. لم تسمع منهم موعدَ القدوم ولا فترةَ الغياب. وها هوَ الفراقُ يأخذُ لهاثَ المسافاتِ الأبديّة ، والأيامُ باتت تتداخل.. لياليها تلتهمُ أنوارَ النهارات وتقضمُها ، حتى غدت تلك الأيام ليال لا غير. تغمرها العتمةُ. وترفلُ على ثراها أطيافُ النوى. [اكتشفت أنها لم تكن الوحيدةَ الجالسةَ على دكّةِ الانتظار طويلاً/طويلا.. رأتهم يتهافتون وقوفاً عند مداخلِ المقبرة. يتطلّعون إلى القادمين كما لو كانوا حمائمَ تبحثُ عن ومضةِ انطلاق.. تتّشحُ قسماتُهم بحزنٍ كامد ، وألمٍ مرير ، ، ولهفةٍ لمواعيد غدت كالحلمِ الكاذبِ.... وحين تلوحُ الأذرعُ رافعةً الصناديق الخشبية المستطيلة تفرُّ العيونُ.. وبلا سؤال تعدو متفرسةً/متوسلةً. وإذ لا ينتهي النظرُ بالمعرفة ، والاهتداء ، وإدراكِ المرامِ يتمُّ الانسحابُ الخذيل تحت غمامات الأسى واليقينِ المُتهالك!!... يحارون!!.. وفي لّجةِ المرارةِ ينطلقُ السؤالُ الباعثُ على الملل ، يفوه به أحدهُم للآخر: "هل زاركم المحبّون؟".. فيأتي الردُّ أكثر تجهّماً: "في الأيامِ الأولى ، والأشهر المتتابعة من الفراق نعم. كانت الزياراتُ تترى ، وعباراتُ الشوق تتهاطلُ متزاحمةً كالغيث. أمّا

الآن فـ....". تتكدّر سحناتُ الوجوه. وتشرعُ بيادرُ الخيبةِ تتعالى.. تكبر.. وتكبر.].. لكنَّ أنسامَ أملٍ مُفتَعَل تمرُّ من أمام عيني الفتاة تقطرُ رحيقاً مُظَلَلاً تترجمهُ مفرداتٌ تقول: "سيأتون.. لابدَّ أن يأتوا. [وكانَ المحبّون في الدروبِ البعيدة/ خارجَ الثرى يخطون تحتَ وطأةِ ثقل الهموم ، وتراكمات الآلام.. يتعثرون فينكفئون ، وعلى عصا الصبر الناضب يتكئون].

وذا ليلة فُتحت المقبرة... حزمُ مشاعلٍ تلهث ناضبةً ، محمولةً بأيادٍ ؛ وأيادٍ أُخرى تمارسُ رفعَ قادمٍ مُسجّى في بوتقةِ الرحيلِ الأبدي.

لم يكن الآتون ممَّن يعرفهم المستقبلون. لذلك عاد النيامُ اليقظون إلى نومتهم ما عدا الفتاة ، فقد هجست أمراً زرَقَها بيقظة جارفة. قضت تعدُّ دقائقَ حركةِ المودّعين الذين ما أنْ استداروا وخلّفوه حتى انطلقت نحوه صارخةً بمرارةِ الثكالى الطعينات:

ـ"آ.. جميل ، أخيراً جئت!! لماذا نسيتني؟"

لم تتلقَّ جواباً لأنَّ الأصابعَ التي مرّت على الرأسِ كشفت شعراً أشيبَ ، وجبهةً جامدةً ، ووجنتين ضامرتين ، ، ثمَ فماً مزموماً خلا من الأسنان... وحين

تفرَّست بالقوامِ الذي حلمت كثيراً أنّ تتراصف معهُ وتعدو رافلةً في جنائنِ الأحلام وجدتهُ محدوداً/ متكلساً.. آنها انفجرت باكية مُرتعبة ، هاتفة:

ـ آ.. جميل !!حتى وأنتَ في القبرِ تسحق قلبي وتمحقهُ ؟.. أبعد مسالكِ الفراقِ الطويلة ، ولهاثِ الآفاقِ النائية تأتيني بالصمتِ والتهالكِ ، والخواء؟.. جميل!!

٣ كانون أول ٢٠٠٢

❖ نشرت في ملحق (أدب وثقافة) الصباح العدد ١٤٩٢ في ١٧ أيلول / سبتمبر ٢٠٠٨

هنالك.. الناي

(١) انكفاء

هكذا.. كلما جنَّ الليلُ تناهى إلى مسمعه صوتُ الناي قادماً من قلبِ الظلمة العتية التي تتكاثف عند كتفي النهر ، فيروح يستدعي فتاةَ الذاكرة لترفلَ على خميلة ذكرياتٍ شرعت تبهت وهو يدخل عامَه الخمسين: "تعالِ"!.. ويفرد ذراعي لهفته ، فتنطلقُ برهافتها المعهودة تقصّ زمنَ ذلك الشاب الذي عشقَ النهر منذ صباه. وحين كبُر ونادت عليه المراهقةُ ليدخل من بابِ حبِّه لتلك الفتاة التي كانت تجيء مصاحبةً لأمِّها وهما تحملان قدوراً يحاوران من خلالها النهر ثم تعودان محمَّلتين بالماء "رحَّب بالنداء ، فوهبته الفتاةَ... فتاةٌ هي الأخرى أشرعت المراهقة نافذتَها عريضةَ ، طالبةً أنْ تتقبَّل ابتسامةَ ذلك الشاب الذي يقاربُها العمر... قالت له: "أنا

زكيـة" ، وقال لهـا: "أنـا وادي".. وقال لهمـا النـهر هاكم أنفاسـي عُبّـا منـها شـوقَكما ، وازفـرا عليهـا آهاتِكمـا يـوم تتألمان أو تتأسيان.. أظهرا غرابةً للجزء الثاني من عرضـه ، فلم يُظهر هو غرابةً لاستغرابهما.. قال لهمـا: "الحـبُّ لـذّةٌ ولوعة.. شوقٌ واحتراق.. نهلٌ وتضحية ؛ والقادم لا تحسبانه جنّةً بلا حدود أو رحلةً بلا انتهاء".

صـوتُ النـاي فجَّـر في صـدرِه شـهقةً ، وجعـل العيـنين تهدران دمعاً.. نهـض علـى ذبـذبات نوحِـه جـاعلاً الخُطـى تقوده إلى النهر.. هناك!.. إلى الصخرةِ التي اعتلتها ورمـت بنفسِها إلى أعماقـه لتتركـه أسـيرَ العـذاب في دنيـا أغرتـه بمباهجِها وغواياتها وتركته يسحقَ قلبَ فتاة أحبتـه بولـه ، بشهادةِ النهر وقرارِ العهـد الـذي قطعتـه لـه فمّـا قـدَّر ، ولا التزم ، ولا حتى ندم.

صوتُ الناي سحبه إلى النهر.. هناك ، اعتلى الصخرةَ. وهمَّ برمي نفسه سعياً للقائها ، هنـاك ، في أعمـاق النـهر.. بيدَ أنّه تخاذل ، وتردد!.. جَبُنَ... فأنكفأ.

(٢) شـجن

- إنّه ينتظرُني هنالك!.. ها هو صوتُ الناي.

وكالعادة ارتدت عزيمَتها على لقائه ، وخطت تاركةً البيت يشيعُ فيه الصمتُ وأنفاسُ الأبناء الذين كثروا عَدداً ، والزوج الذي نعِم بها زوجةً.. اتَّخذت الأزقةَ المتهالكة ، خروجاً إلى النهر. لم تأبه للظلمة التي كانت تشيعُ في الأرجاء ؛ والفضاء المفتوح على الشريط الرملي الممتد مع النهر ما عَنى لها شيئاً.. الذي كان يعنيها هو تصميمُها على لقائه حتى وهي تدخلُ عامَها الخمسين.. صوتُ الناي يعزفُ سيمفونيةَ الألم ويقدِّم مُعلّقةً موسيقية تتحدث عن الفقد والضياعِ الذي لفَّ حياتَهما بعدما كانا يلتقيان خلفَ الزورق الراسي على الضفة ، بعيداً عن أعينِ الفضول ينعمان بأعوامهما الخامسة والعشرين.. تقعي على الرمل ويقعي معها. يحدِّثها عمّا جمعَ من مال ليكون مدخلاً لحياة حلما بها كثيراً.. تقول له : أنا أثقُ بك ، وأعرف أنكَ عازمٌ على الاقتران بي. ولكن هل تجتاز العقبات فلا تأبه لمن سيعيق لقاءَنا ألأبدي؟ فيطلقُ قهقهةُ السخريةِ من الأقدار ، والمفاجآت ، والعقبات. قائلاً: "أنت لي حتى لو غضبَ النهرُ زَعَلاً ، وأزبدت السماءُ توعداً.".

صوتُ الناي يقتربُ كلما دنت ، فيحاورها (هو) بالألم الذي تسللَّ إلى تلافيف رأسه وجعله يشعر بوشيشٍ دائم يشيع في دروبِ مسمعه ، وتدمع عيناها (هي) كلما التقته واكتشفت أنَّه يفوه بكلماتٍ لا رابطَ لها مع حواره.. تقول له: حالُك لا يطمئـنُني! بماذا تشعر؟. فيجيبُها بكلماتِ الذهول: وشيش يدوُّم في أذني ، ويُعجزُني عن محاولةِ النطقِ بما أريد.

يوماً بعد يوم كان الوشيشُ يكبر واللسانُ يريل. استعاضَ عن عجزِه في النطق بنايٍ صنعه بنفسه من القصب الذي يجاور النهر.. وجده طريقةً مُثلى للحوار مع الحبيبة التي تمزقت دواخلها وهي تترجمُه يذبل ، ويذوي ، ثم يموت..

بكته بحرقةِ الشباب. وتلفعت عباءةَ الحزن والعزمِ على أن لا تنساه. ساعدها في ذلك صوتُ الناي الذي كان يتناهى إليها عندما تهمّ بوضعِ رأسها على الوسادة ؛ حتى وهي تقترن برجلٍ أغدق عليها عديدَ الأبناء وزرع لها دربَ الحياة بورودِ الطمأنينةِ والهناء ، فتنهض فزعةً تخشى عتبَهُ. تنهض على نداء الناي متَّخذةً الدرب النازل إلى الشريط الرملي.. هناك حيث ستلتقيه كعادتها التي استمرت وتواصلت ربعَ قرنٍ من الزمان ، ومدىً لا ينقطعُ من اللهفة والحنين.

(٣) قــدر

- وهكـذا يـا أحفـادي.. الـزمنُ علَّمنـا أنْ لا شــيء يـدوم ، وموهـومٌ مـن يَغـتر في الـدنيا.. ألا تـسمعون صـوتَ الناي؟

- نعم.. نعم!...

كــانوا يــردّدون بحماســةِ الــصغار المتعطــشين لفحــوى الحكايـات يقـصُّها علـيهم الكِبـار ، وهـم يؤكـدون كلامَـه ، قائلين: نعم.. ها هو يعلو.. ويعلو!.

- ساحرٌ غريب هذا الليـل ، ومكمـنٌ عجيبٌ هذا النهر ياأولاد.

حيرةٌ متراغيةٌ تفشيها عيونُ الصغار الملتمعة شغفاً لما سيقوله الجَّد.. قلقٌ محض تعبّر عنه ارتعاشُ أنامِلهم الرقيقة وهم بانتظار تحرّك شفتيه.

- لا نـدري مـن أيـن قـدمِ ذلـك الـشاب الثلاثـيني ، متخـذاً مـن زورق صـغير بيتـاً وملجـأً ، ومـن النـهر دربـاً للعـيشِ وتمـشية الحـالٍ... الـذي ندريـه أنـه كـان غريـبَ الأطوار ، متوحِّداً لا يدنو من الناس كثيراً ، ولا نطق يوماً بغير تعامله في بيع سمك يصطاده ووسائل عيش يحتاجها ليومه. ما كان قبيحاً بـل جمـيلاً. مـا ارتـدى ثياباً متهرئـةً

لبائسٍ فقير بل كان يتبدّى مُهندَما مُترفاً حتى وهو منهمكٌ في عمله كصياد يتعامل مع الشباك والماء ورمل الشاطئ.. عزفُ نايٍ في منتصفات الليالي كان يأتينا من هناك.. من جهة تواجده. نايٌ صرنا في المدينة نسمعه على امتداد أعوام فيثير فينا الشجن.. وحين نتوجه إلى مصدر صوته لا نجد أحداً.. فقط صمت يشيع يحكي قصةَ نهر لبّى نداءَ مَن قال له أريد أنْ استقر في أعماقك ، وامرأة غريبة بتنا نبصرها تتجه كل ليلةٍ صوبَ شجرةِ الغَرَب المُعرِّشة عند كتف النهر.. تسند ظهرَها على جذعها ، هناك تبكي بمرارةٍ وحرقة وألم ، ثم تقفل عائدة إلى حيث لا ندري. يصمت بعدها الناي ، فلم نسمع له عزفاً حتى يحين منتصف الليل التالي... قيل أنها امرأةٌ ذاكرةٌ تؤرِّخ الانعطافات الحادة لأولئك الذين سار بهم قطار الزمن إلى حيث لا يرغبون ؛ تقص على الناي حكاياتهم ليدوّنها في سجل قلبه ويجسِّدها نوحاً على جدار الأيام. وقيل أنها امرأةٌ شهدت نشأةَ جارٍ لها أحبته وعاصرت أيام عزّه لكنّها لم تفه له باحتراق قلبها ولم تُطلعه على لواعجَ أعماقها. فعاجلُه القدرُ يوماً بطعنة نافذة عندما أحبَّ فتاةً اختطفها مَن لم يستحقَّها كما اعتَقَد. ذلك جعله يهيم مجنوناً ، يترك البلادَ والعبادَ فيصاحبُ النهر ويرثي حبّاً

بناي يُطلق نواحَه ليلاً. أما هي فلم تجرؤ على التقدم لتعرض عليه قلبَها المحترق ، وتقول: أنا التي تستحقها لا هي ، إنما طفقت تواسيه بدموعها من بعيد ، وتعزّيه بمهنةٍ ليست له ؛ ختمها بغيابه الأبدي في قلب النهر. مثلما قيل أنها حبيبته التي هجرته عندما كان يُجاهر بحبّه لها ويكايدَ أصدقاءَ حذّروه من غدرها ، فترجمَ حذرَهم غيرةً منه وحقداً عليه ، ولم يُصخ سمعاً لقلوبِهم المعتصرة ألماً عليه ، ولا لألسنتهم المردّدة: ستندم!.. ستندم ؛ حتى جاء اليومُ الذي مرَّغت على أديمِه كرامتَه ورمته ذليلاً في مجتمعٍ لا يُحب الأذلاء ، فاتخذَ من النهرِ درباً ، ومن الصيدِ سلوى ، ومن الغيابِ عنهم خجلاً وتصميماً ، ومن الناي عبرةً للقادمين.

تلك حكمةُ الزمنِ ؛ تُقر أنْ لا شيءَ يدوم ، وأنَّ من يَغتر في الدنيا موهومٌ.. أتمنى أنْ تتخذوا منها تذكرةً لكم يا أولاد عندما تكبرون؟.. هل تودون الذهاب لمصدرِ نوح الناي؟

هتفوا بشغفِ الوصول والاكتشاف:

- نعم ، نعم. ونريدُ مشاهدةَ المرأة.. هيا!

(٤) مصير

شجيٌّ ومثير.. عذبٌ ومؤثّر صوت الناي ، ذلك القادم من هناك.. من الشريط الرملي المعتم الذي ينام على هدهدة أنسام تمر عليه وتمرر كفَّها الحاني على جسد النهر... كثيفٌ ذلك البستان الذي يبدو كحشدٍ من آهات لأناسٍ توسَّدوا الثرى وغاروا في بطونِ الزمن السحيق. أناسٌ صاحبوا إلى قبورِهم قلوبَهم الحزينة ، وهمومَهم الثقيلة ، وبراءتَهم المنتهَكة ، كذلك تطلعاتِهم التي لم تتحقق. صوتُ الناي أيقظهم الآن من رقادِهم. والناظرون من على شرفات الحاضر بإمكانِهم اللحظة رؤيةَ الجموع يخرجون من عمق العتمة حاملين آهاتِهم مشاعلَ تضيء دربَ القدوم إلى حيث صوت الناي.. يتوالى وصولُهم ، وتزداد جموعُهم فيغصُّ بهم شريطُ الرمل.. يتطلعون في ما بينهم. صوتُ الناي يدفعهم إلى أداءِ طقوسِ الشهقات. ينثرون نظراتهم المشبعة بآلام لا تُطيق حملَها الجبال. يتبادلون حواراتٍ لا تسمعها الموجودات (يسأل احدُهم الآخر: من أي زمنٍ أتيت؟ وكم استغرق وجودك في بريةِ الضياع؟ متى ينتهي رحيلُنا الأبدي؟ وإلى أي مرسى تتَّجه بنا سفينةُ الأجداث؟). بوسعِ الناس - من على شرفاتِ الحاضر - مشاهدةَ الكلمات

تتفتَّت مهشِّمة من بين شفاههم بينما أفواهُهم بين لحظة ولحظة تنفرج كما لو كانت تبغي إطلاقَ صيحات الشجن لتحكي تاريخاً من المرارات ، وأجيالاً من السحق ، وهولاً لا يطاق من الفقد.. بالإمكان رؤيتهم يرتدون ملابسَ لأجيال انهالت فوقَها القرونُ والحقب تحكي عهوداً سومرية وبابلية وإسلامية ومغولية ، ريفية وحضرية ، أعراباً وأغراباً ، سادةً ورعاع. طافوا في المكان ؛ وهاموا على صوتِ الناي يحدوهم إلى مداراتٍ زمنية لا ترى ؛ ما لبثوا أن دخلوا إلى النهر يتطَّهرون استجابةً لندائه السرمدي ؛ ثم يخرجون عُراة إلا من همومِهم وأسئلتهم ، فيعودون زرافاتٍ ، زرافات إلى كثافة العتمة ، إلى قلبِ البستان الغارق في الدكنة الثقيلة ليرقدوا الرقادَ الأبدي على هدي صوتِ الناي الذي شرعَ يتلاشى بغيابِ آخرَ عائدٍ منهم. تشيعُهم حيرةُ الوجوهِ المتابعة -من على شرفاتِ الحاضر- الوجوهُ التي ما أنْ هدأت الأشياءُ ، ومعها النهرُ حتى راحت تحدّق بملامحَ بعضِها بعضاً وسطَ حركةِ شفاهِها التي أفصحت عن كلامٍ يقول:

يوماً ما ستنظمّون إليهم.

نعم.. يوماً ما.

السماوة- ٢٠حزيران ٢٠١١

عصافيرُ الروحِ الرهيف

(١) رذاذٌ لهيف

على همسيسِ بوحِها العذب ، وفي صفاءِ روحِها الغافي بين ثنايا الأرائجِ كانت تمنح أيامَها فيوضاً من الانطلاق ، وترسم على صحائفِ الهواءِ صدى أنفاسِها لتقول للمدِّ الهائل من التحليق:

ـ "أنا فراشةُ الهوى!".

أو توشوش:

ـ "أنا عصفورةُ الجذل!".

أو تكتب بأناملِ الخدر:

ـ أنا جدولُ ماء رئيق ، وسلسبيل نميرٍ شفيف.

فتحاكيها الطبيعةُ بأصواتٍ كأنَّها الشَّعرُ الرهيف ؛ أو كأنَّ الشوقَ انموذجٌ للمسرَّة.

مرةً التقيناها تنثرُ شِعراً سرقته من غناءِ العندليب ، وتعزف شوقاً حصدته على أعتابِ أغنيةٍ جنوبية لها موّال يشبه حزنَ طفلٍ كسير.

دنا أحدُنا ؛ وما دنت...!

وصاتَ آخرٌ ؛ ولم ترد...!

وقال عابرُ طريق: "للنسماتِ الرخيةِ هفيفُ الجسدِ الثميل..

ولم تكن تأبه!".

ولم نكن نكفّ عن رشقِها بمفرداتٍ مستلَّةٍ من جذل الطبيعة.

كان ذلك قبل أنْ تتداخل أوراقُ الهمِّ وتتشابك أغصانُ الأسى.. قبل أن تصيرَ للجدرانِ عيونٌ وللأيامِ صفةُ القتلِ اليومي في مدارات دماء فوّارة تُنتجُها طاحونةٌ اسمُها الحرب.

كان ذلك قبلَ أن يقول لنا الدخانُ سأطلي وجوهَكم واسرق نضارةَ الشباب.. قبل أن ينده بنا البارودُ أنْ تعالوا لأجعل من رشاقتِكم رائحةً لشواءاتٍ آدمية باعثةً على الغثيان.

وكانَ إنْ فرّقتنا الأيام وابتلعتنا المنافي.. ومثلما نسينا عديدَ الوجوه وتلاشت من أمام عيونِ ذاكرتنا رسائلُ الحب عادت تباشيرُ الهناء ؛ وقال الذي وعدَنا بغيومِ السماء الساطعة البياض لتؤرخ وجودَنا في فضاءِ لوحةٍ تكتب حفرَ التاريخ على صوانِ الزمن: هي ذي منابت

الألق.... ثم أدار وجهه ورحل.

.....

.....

.....

عُدنا.. !!

وكانت لعودتنا رائحةُ البنفسج المُتيَّم للنسمات.. ولشوقنا للأزقة والدروب والأعشاش القديمة طعمُ الشوق الذي يُكحّل الرموش.

وكما لو كنّاً في غمار عَتهٍ رهيص ، وهيمنةِ جنونٍ رعيش ، ولهفةِ طفلٍ ضائع يبحث عن أمٍّ رؤوم هائمةً استقبلنا القوامات والوجوه !.. ألقينا عليها ورودَ محبتنا العتيدة ، ورشقناها برذاذ دواخلنا اللهيفة. وكنّا على وشك أن نفيض بأحمالِ دواخلنا ونهرق جيوشَ آلامنا التي احتشدت على مرّ الأعوام ؛ ونبكي ضياعاً لفَّنا ، وشوقاً أدمانا ، وأوراقاً ملأناها بإشعار الحنين ، وشعراً آلينا ألاّ نُفضيه إلاّ عندَ أعتابِ استقبال مُحبّينا متصورين عُظم مراسيم ذلك الاستقبال ، وتهافت عبارات اللَّهَف.. ولم ندرِ أنَّ كلَّ ذلك لن يحدث.. ولم ندرك كذبَ مشاعرنا وخذلانها إلا عندما كنّا وفي ساعات غروب نخطو على ذات الأديم الذي خطونا عليه غب أعوامٍ ، ونطالع جوهاً جديدة لفتيات وفتيان

ولدوا مع مخاضات أهوال الحرب والحصار والاحتلال.
ومن بين الزحامات التي غصَّت بها الشوارعُ والأسواق لمحناها!!!!

آآآآآآآآآآ..

لم تكن عصفورةَ جذل ، كما كنّا نسمعها تغني!!
ولا فراشة هوى / يوم كنّا نلمحها تهفهف!
كانت جبلاً من همٍّ عميم!.. وواد من دكنة كئيبة!!
كانت إعصاراً من ضياعٍ هائج.. وشيخوخةً كامدة لا تُقدر بزمن!!

وعندما أوقفناها قاطعين عليها الطريق حدّقت بنا للحظات، ثم تجاوزتنا بلا نطق (لا ندري إن كانت تجاهلتنا بقصد أم تهالك الذاكرة لديها مَحا من صفحتها كلمات الوله التي كنّا ندوّنها لها على قراطيس اللهفات!!) ؛ تاركةً رائحةً منسية استطعنا أن نقبض على رغبةِ شوق بحجمِ اضمامةِ الكف، ولم نستطع الإمساكَ بما يشرح لنا ديباجةَ حياتها السابقة ؛ لأنَّ الوجوه التي كانت تمر وتتزاحم والتي ضاعت (هي) في خضمّها فتحت كتابَ الأسى الذي مر ، وعرضَت أيقونةَ الدمارِ الذي حل..

فألجمت ألسنتُنا..

وماتَ النطق.....

(٢) رَفَــل

في خمائــلِ الحبــور كانــت تــترك لقــدميها الرفَــل ، ولـصدرِها اغـتراف أرائـج الربيـع. مـا كانـت عابئـةً لعتمـة الظلال تخفي حشداً من عيونٍ ذئبية تترصدها ولا أباحت للهواءِ خشيتَها من ضغائنٍ تبني وجودَها كتابوات نـاجزة. فقط قالت لقلبِها : سأهبكَ أولَ ضحكةٍ للمودّة وأُسقيكَ عطرَ الجنـان بينمـا سمِع روحُهـا الغـارقَ في ثنايـا الهيـام صدى حزنِها على أيامٍ سفحتها على صخرةِ الالتـزام ، وهجسَ عزمـاً كانـت تُنشئه ليتكـرَّس أجنحـةَ انطـلاق وعشقَ فراشـة للأشـذاء. لـذلك بعثـرت حنينَهـا علـى أولِ نجمٍ بزغَ لها.

التقته عندما قالت لهـا ساعاتُ العـصر خذيـه. أغـدقي عليه أفواجَ حنانِك وانثري على وجهـه نـسائمَ الانـشراح ؛ فهـو متـيّمٌ مُعنّـى في وجـدِك ، حـائرٌ كيـف يمدَّ لـك كـفَّ اللقاء وهو الجاهل بما في قلبك مـن دروب ، ومـستفهمٌ بأيـةٍ سورةٍ من سورِ الشغف يتلوها عليك فيتلقّى رضاك.

وكـان هو يخرج علـى أمـل أنّ تبتـسم لـه بنـاتُ الحظ فيأخذن بيديه إلى حيث سيراها تخطو على رصيفِ دربٍ تتلاصـق عنـده المحـلات المبهرجـة وتتحـاور فيـه عيـونٌ

المـتطلعين للمعروضـات عـلَّ معروضـاً يتـوائم والأذواق فيندهون به أو ينادون عليه ؛ علَّها تمتلك "موبايل" فيرمّش لهـا بلحـنٍ يـصنعه عـودُ القلـب ويـستقبل ردّاً تبثّـه رغبـةُ اللقاء. يقف عند حشد من الفساتين الضاحكة خلفَ العارضةِ الزجاجية للمحلِ الذي يقابل نافورةَ الماء ، تماماً على الرصيف الثاني المحاذي للفرات. كان يسكب نظراته على فستانٍ محفور الصدر خُيّل إليه أنَّ مَن ترتديه ستترك للنهدين بعضاً من حرية العرض ، وستعرض الرقبةَ في أفتنِ حوارٍ مع الحفرِ القوسي..

قال لها: هيّا!!

دخل وإيّاها مهرجان الألوان وكرنفال الجذل (هكذا خيّلَ إليه) فانبهر البائع لدخول اثنين ذكر وأنثى/ فتى وفتاة في زمن الحرب والمستقبل المضبّب المجهول. زمن صارت فيه الغربان تحرّم اصطفاف حبيبين أو زوجين أو زميلين فذلك من مَدعاة العهر البشري بالعرف الظلامي. كان البائعُ سعيداً باستقبالهما مثلما كان خائفاً من المصير الذي سيواجهه في أيةِ لحظة ؛ إذ قضى يشعر أنه بين مُحصِّلتين للضياع: ضياع الرزق جراء العيون المتلصصة من بؤر الظلام ، وفقدان العمر نتيجة انفجار عبوة ناسفة أو سيارة مفخخة أو زخٍّ هادر من رصاصٍ مجنون لا

يعرف للوقت من حصول(لقد غدا محسورَ الرزق وضئيلَ الزبائن وذا عين تتمنى فلا تحصل / ترغب فلا تحوز.. إنّه يخشى قدومَ مخالب الظلام ؛ والغياهب التي عافها البشر ورحلوا منفضّين عنها بعد طول عتمة يتحسسّها الآن وبألم فضيع تعود لتغزو منابتَ الأنوار سعياً لإطفائها!).

تدفّقت (هي) تطالع انثيالات الأنوار وتراشقَ الحزم النورانية ؛ تتملّى فستاناً لتنتهي بفستان. تهفو لواحدٍ فينده بها آخر. تقف عند ثوبٍ ليقِّدم احدُ القمصانَ المعلقة باتساق مع أقرانٍ له جملةَ إغراءاته ؛ تُسائل سوتياناً فيغريها لباسُ داخلي. وفيما تتنقل من مَعرض لمعرض ومن إكسسوار لإكسسوار انتهى بها المطاف إلى حقيقةِ أن تطلبَها جميعاً. فاستدارت إليه لتفوه بما تنامى في أعماقها. أراد(هو) أنْ يعرض انشراحَه ويسحب المال الوفير من جيبه الممتلىء ليدفع (هكذا خيّلَ إليه) ثمن بضاعةِ المحل بأجمعه عندما دوّى صدى انفجارٍ أحدث خلخلةً للمحل بما احتوى وحصل انهيالٌ للبضاعة بما عرضت فتلطّخَ الفضاءُ بدماء فوّارة ؛ وتدفقت على ارض ارتحالاته بهارجُ الأمنيات فيما تمزَّقت فَتاته وتبعثرت في دفين ذاكرته وحمَّى أحلامه..

ولم يشعر إلا بأعضائه تتقطع!!

وروحه يتفتت!!

وقلبه يصرخ آآآآآ !!.. وأيادٍ بأصابع مُختلسة تعبث في جيوبه باحثةً عمّا يملؤها ، ثم تنتقل إلى حزامِ وسطه تفكّه! وبسحبة خرقاء تنهش "الموبايل" الذي جفلَ صامتاً ينتظر الأناملَ الحبيبة لتدخل على رقمِ الحبيب حيث الحوار الملائكي يدور بين مخلوقين حباهما الخالق جذلَ الوجود فسرقتهما عتمةُ القدر.. والبشر!!!!

(٣) توصيف محايد

هفت تترنّم لفعلِ نغمةٍ متماوجة انبثقت من بين حنايا القلب ؛ وقال لها الروحُ الغافي على خمائلَ الرضا : أنا في طوافِ الندى الهابط على وجهِ وردةٍ حالمة. فردّت تحاورُه بالنظراتِ الهاربةِ في بحثِ قنصِ ابتسامةٍ تأتيها من شفاهِ الجّذل ، وكانت بلاطاتُ الرصيف تتلقّى ضرباتِ قدميها الواثقتين ، والشارع يترك فضاءَه يقصُّ تهافتَ الأيام الممتلئة بالمفاجآت في زمنٍ كانت المدنُ فيه مسرحاً لنزوات البارود واهتياجات العبوات الناسفة وانفجارات السيارات المفخخة.

كانت تريد لشَعرِها أن يهفهف ويتطاير كأحلامِ العاشقين ، ولنظراتها أنْ تتسلّق أجسادَ العابرين ، ولقلبها

أن يتعلّقَ بمن يرمي له شِباكَ الإعجاب ؛ لكنَّ القلقَ كانَ عميماً والمرارةَ أبجدية لطوايا السائرين في دروب المجهول..

لقد تلقَّت من صديقةٍ لها في مدينة نائية نداءً يخبرها أنَّ أياماً معدوداتٍ وستصبح زوجةً لشابٍّ شاركها الدراسة الجامعية بينما تركت قبل أيامٍ صديقةً أخرى تدخل قفصَ الزوجية بقاربٍ من عسل ؛ وأخبرتها صديقةٌ ثالثة أنّها بانتظارِ حبيبٍ سيزورهم غب أيامٍ لطلبِ يدها ؛ فكانت تتلقّى الأخبار بفرحِ المتحدثين ثم تستدير لتبحث في الوجوه الغائبة أو الحاضرة عمّن يمكن أن يكسر جرّةَ الجمود ليتقدَّم كمعجبٍ هيمان..

وكانت تتقدّم على بلاطات رصيف الشارع تتوسَّم في قدميها الثقةَ في الخطوِ ، وفي قلبها الصبرَ على المواقف ، وفي عينيها حسنَ الاختيار. وكنّا نلمحها في هذا الشارع وفي غيره يومياً ترفل على شذا الآمالِ الكبيرة التي تعجُّ في سماءات روحِها المنفتحة. وكان من بيننا الصديقُ الأهدأ في السلوك ، والأقلُّ في الكلام ، والأجملُ في الملامح.

هو الذي ينظر إليها فيطيل نظراتِه عليها.

وهي التي تتطلّع إليه فلا ترُدَّ عليه.

يتركنا نلاحق القوامات التي تجاهد في تخطّي وطأة

الاحتلال وجنون الانفجارات اليومية فينسلّ من بيننا ولا ننتبه إلا على حيرة احدنا يسأل عنه ، مندهشاً ، ومفتقداً ؛ فندرك بعد أيام أنّه وقع في حبائلِ حبّها ، ونكتشف أيضاً أنها سقطت في بئرِ وداده.

صارا يلتقيان في زاويةِ حديقةٍ منسية خشيةَ العيون الذئبية التي مخَّضتها أبجديات الفوضى التي تعمُّ البلاد. طفقا يبحثّان عمّا يقي حبَّهما الوليد انفلونزا الوأد البغيض فالفيناهما يتخفيّان ويغيّبان مشاهدَ الدم ، ورائحةَ البارود ، والحزنَ الكتيم. يدخلان شوارعَ لا تقربها سرفاتُ الدبابات ، ولا تدنو منها السيارات المفخخة. ويأتينا ليقصَّ علينا حكايتَه الجميلة التي تَعلو فوقَ الدمار والعثار والعبث المستديم ، وكيف أنهما يعيشان الهناء الخرافي فنتضرع لبقاء هذا الحب نائياً عن لون السخام.

جاءنا يوماً ليُقرَّ عزمه على الاقتران بها ؛ واتصلت هي بمن أرادت من الصديقات. وكانا على موعدٍ أنْ يجوبا الشوارعَ علنا ويدخلا محلاتٍ تُبشّر بالأمل في الحياة القادمة عبر معروضاتها المبهرجةٍ وأنوارها الضاجة.. توقفا عند معرضٍ تتباهى خلف زجاجته العريضة تفاوتاتُ البدلات الحليبية الناصعة بأشرطة الدانتيلات اللامعة.

قالت له: تعجبني هذه ، وكانت تشير لبدلةٍ مكشكشة

فارهة تزينها لآلئٌ بيض تتدلّى كأنها دموعُ ملائكةٍ كانت تفرح.. وهمست في أذن : إنها تشبه البدلة التي كانت ترتديها شارون ستون في فيلمها غريزة أساسية.

وقال لها معترضاً: أنا أفضّل هذه.. وكان يشير لأخرى وجد فيها انتصاباً يليق بانتصاب قوامها الرهيف ، وحفراً في جهة الصدر يليق بعرض رقبتها البضّة وأعلى صدرها اللدن ، ووسطاً ملموماً يتواءمُ ووسطها النحيف.

سحبها من يدها ؛ واندفعا يلجّان فمَ المحل المبهرج عندما وبلمحةٍ سرقها الزمن من عمرِ الوجود لم يرياً احدهما الآخر ، ولم يسمعا كلمات استنجاد أو افتقاد ، أو ألم ، أو وشوشة ، أو همس رهيف أو مناجاة حنين أو إيماءات وداع.

فصار المحلُ ركاماً..

وصارت ألاماني غبارا.

وصرنا نندفع بفعل الاعتياد الذي أصبحَ ديدناً نبحث بين الركام عن أحياء..

ولم نر ما يشير إلى أنهما كانا هنا..

فقط عرفنا أنَّ أشلاءً شرعت فُرق معالجةِ المتفجرات تجمعها في أكياسٍ ، وسياراتِ إسعافٍ تصرخ من بعيد وعربات إطفاء تعول قادمة...

السماوة- ١٤ حزيران ٢٠٠٧

نساءُ تراب*

كانت أمي كلّما أرادت وصفَ امرأةٍ منهكةٍ/ خاويةٍ/ تَعبى
قالت: أنها امرأةٌ تراب.

(١) القبض على ماء الضياع

قضت أعواماً من الهمِّ المستديم تُحصي عددَ الخيبات وترمي على جدارِ أيامِها سيلاً من الشتائم ومسبّبات القلقِ الذي لا يكفُّ عن التعشش بين ثنايا حلمِها المزحوم بالهتك والجراح.

قضت أعواماً تجاري الأيامَ بمجاراةِ مَن يحمل كوى جراحٍ فاغرة تنزُّ ذاكرةً أرهقتها الحوادث وسجَّلت لها تواريخَ فقدٍ لأحبةٍ وضياعٍ لأهل. تُفضي لمن يلتقيها بما خزَّنته ذاكرتُها التعبى فتحصدُ سنابلَ الأسى من العيونِ المحدِّقة ؛ وتسمع لوائحَ المواساة تأتي بها مفرداتٌ ، من مثل:

"اصبري..

انتظري..

اكتمي..

اضغطي على جمرات القلب وأوئدي جراحَ الروح فليس لكِ إلا أنْ تتركي للأيامِ فعلَ النتائج."

فيما آخرون يسرّون لها بالقول:

"كُلنا في المحنِ نخوض. وفي الألمِ نقارعُ المستحيل..

كُلنا نترعُ من دفيقِ الكَمد ونتبارى مع جيوشِ الإحباط..

لكنّنا لا نيأس! اليأسُ مقبرةُ المتطيرين ؛ والتهالكُ شاهدةُ الضائعين.. دَعي قلبَك كالجلمود."

وإذ تلتقي بناتِ الفرح وتفردُ لهنَّ الدواخل مرحبةً مُهللة لا تتلقّى غير بالوناتِ السخرية وقهقهات من عداد أنها لم تعُد ذات قيمة يمكن أنْ تُنتج نفعاً! وأنّها إنما تخوضُ في قشٍّ يكدّسه خمولُ الأعوام.

يلتقيها الصغارُ في الأزقّة فلا تسمع منهم غيرَ مواساةِ الحزن تطفحُ بها نظراتُهم البريئة.

وتحاذيها جارةٌ لها فتهمس في مسمعها :

-"ما لكِ يا أختي تتركين العقلَ وتقبضين على ماءِ الضياع؟!"

ويبصرها جارٌ كان يوماً تمنّاها قرينةً له ، وحلُم أن تمنحه دزّينة من الأولاد. يقف منتصباً لحين مرورِها زارعاً نظراتِه على القوام الذي عَفت عنه الأناقة واستحالَ صورةً للهزال..

الذي تقبض عليه بكفّها تهرأ! حتى أنَّ ما في الكفِّ لا يشير إلى أنّه صورةٌ فوتوغرافية ؛ وانَّ الصورة تجمعُ عائلةً تقف في كامل حبورِها وجذلِها وسعادةِ أيامِها الهاربة. (كان الأبُ يرتدي بدلةً حضرية لرجل يدير مؤسسةً كادرُها يتجاوز المائة. وإلى جانبه تقف هي بفستانِ الأمهات اليافعات اللائي يتباهى الشبابُ أنه هويةً لهنَّ. فستانُها يكتسي لونَ السماء وقد حطَّت على جهة الصدر الأيسر حمامةٌ فضيةٌ لامعة يمسك بها دبّوس البروش فيما منتصف الثوب الأسفل يضيع بين الصغار الثلاثة: صبيان وبنت.. البنت بعمرِ الخامسة وهي اصغر أخويها ملتفتةً كما لو كانت تريد أن تحدِّث أمَّها.. هكذا جاءت الحركةُ في الصورة. وارتأى الأبُ أن تكونَ طبيعيةً وبلا تكُلف، حتى أنه رفضَ طلبَ المصوّر في أعادة أللقطة.)

حين مرقت من أمامِ الجار دون أن تنتبه لوجودِه أطلقَ حسرةَ ألم! حبس مبتدأ دمعة. رفع رأساً إلى السماء فلم تُخبره بغير الحياد. ولم تدع له فرصةً لاقتناص فُسحةٍ من

ارتياح. فقط جعلَ نظراتِه تتَّجه إلى القوام المتهالك أمامه. (كانت خرجت لتقتني بعضاً مما تحتاجه المطابخ لدرء طائلةِ الجوع لدى الصغار. أوصت الأب بإدارة رعايتهم لحين العودة طالما أنه متعطّل عن العمل لظروف منعِ التجول الذي فُرض من مُسلحين لا يُعرفون ، وأنّها فرصة مناسبة أنْ يتواجد في البيت... واجهتها الأزقةُ الفارغة التي تقود إلى الشارع الرئيسي الذي وجدته يعجُّ بمسلحين مُلثمين ، وأسلحة يحملها فتيةٌ مراهقين يوقفون العربات ويستبيحون هواءَ الأرصفة ونقاءَ فضاء الشارع. تحرَّكت صوبَ محلٍّ خضارٍ اضطرَّ صاحبُه البقاء لئلا تُفسد بضاعتُه ويخسر المستقبل. ابتاعت حزمةً من السبانخ وحفنةً من الطماطة ؛ وحبّات بطاطا. ثم خرجت لتواجه بزخٍّ رصاصٍ لم تفقه من أين مصدره وإلى أين يتجه.. وفي لمحة تلقَّفت زقاقاً قريبا يُدخلُها إلى جغرافيةِ أزقة أوصلتها إلى زقاقها وقد فوجئت بفراغهِ وصمته ، ثم إلى بيتِها الذي باغتها البابُ الرئيس بانفتاحه.

هجست شيئاً أقلقها..

وهاجمها صمتٌ أرعبها..

بغتةً انتفضت من بين يديها البطاطا والطماطة وتناثر السبانخ منفرطاً على الأرض فتخضب الجميع بدماءِ الأب

والأبناء المذبوحين بسكّين باشط قطعَ لهم الرؤوس ؛ وثقبَ فيهم الأجساد.. ولم تر بعدها غير الأشياء المشوَّهة! والعقل الفالت الضائع !.).

همَّ الجار باللحاق بها ليعيدها إلى الدار ؛ لكنَّه توقف!

تذكَّر أنَّه ولعديدِ المرات فعلَ ذلك.. ولعديد المرات فعلَ الآخرون دون جدوى!

وجودُها صارَ الشارع!

والبيتُ استحالَ مقبرة...

٢١/آذار/٢٠٠٧

(٢) على طبقٍ من شواء

أرهقها تعبُ القدمين ، وآلمها جهدُ الساقين مثلما ملّتها الدروب وعافتها العيون.

تلاحق جمودَ الأشياء فتنتصب كما تمثالٍ مُهمل أو مومياءٍ منسية حتى غدت من عداد اللواتي يمتلكن قلباً لا يأبه للحادثات ولا تولي تهجساً للمفاجآت ؛ فقد طُعِنَ هذا القلب بخنجرِ الحزن الأبدي ، وقُدِّمت الفلذّة على طبقِ شواءِ البشاعة (يتناهى إليها خبر رقابٍ محزوزة ، وأعضاء مبتورة ، وجثثٍ طافية في نهر عُرِفَ عنه النقاء. وتبثُّ الفضائيات إحصائيات يومية لقتلى مرمين على قارعاتِ الطرق والأرصفة. وتأتيها الجارةُ مرتعبةً تحدّثها عن مشهدٍ رأته أو حادثة تجسَّدت أمامَها مفشية ذهولاً ينأى عن التوقع في أنْ يصل انحدار البشرية إلى أدنى دركاتِ موت المشاعر وتجميد الأحاسيس! وتحذّرها.. لكنها كانت تُطمئِن الجارة المتقهقرة بمفرداتٍ تبثُّ ثقّةً بأنَّ ما يحصل سينتهي لا محال ، وأنَّ الموتورين سرعان ما يثوبون إلى رشدهم ويتقّون الله: "سينتهي كل شيء يا أختي.. وتصير سوالف!").. تقطع الدروب وما من أحدٍ غدا يوقفها ويرجوها العودة لبيتها. والساعات التي تصرفها

تائهة في أزقةِ الضياع ما عاد لها قيمة الحساب ، هي التي صرفت أعوام زواجها في نظامٍ تُحسد عليه وحياة صارت أنموذجاً بين القرينات.

العباءةُ موحلة والوجهُ ممتقع ، والكفّان يفضحهما إهمالٌ صارخُ تخلّيا عن مصطلح النظافة ذلك أنهما وسيلتها في الكلام مع الفراغ والتلويح بهما لمخلوقاتٍ وهمية. وحين تُبصر طفلاً لا يتعدى العام تحمله أم حنونٌ أو أخت حريصة تسيح الدموع على وجنتين متقشرتين وتروح ترمي بجسدها الثلاثيني الواهن على رصيف الدرب منفجرةً بنوبةِ بكاء حارقة (في مطبخ البيت الحسير كانت تقلّي شرائح الباذنجان وتفكّر بعشاء الزوج المحنَّط بقالب البطالة المفروضة قسراً وحسرة إغلاق محلّه وسيلة العيش الوحيدة بسبب الهواجس الأمنية. ليس لها الآه ، والبنتُ الصبيّة ضجرت من جثوميةِ جدران البيت فرفعت أخاها الطفل الذي دنا من العام واستأذنت الأمَّ للجلوس عند عتبةِ البيت لدقائق ليس غير... تلك الدقائق قلبت موازينَ الحياة ؛ وأغلقت كلَّ منافذِ الثقة التي كانت هي تمتلكها وأرصدةِ الأيمان التي تعتمد على فحواها عندما اندفعت البنت شاحبةً مرتعبةً وهي تشير إلى الباب وكأن حدثاً مهولاً قد جرى. أسعفتها بضعةُ

كلمات.. قالت: "أنَّ ملثمين سحبوا من يديها الطفل وذابوا في انعطافات الأزقة".

يتذكّر الآخرون أنَّ سحابات الألفة كانت تغدق على الناسِ مطراً مدراراً يسقيهم إكسيرَ حب الجيرة ، وصونِ العِرض ، وحمايةِ الممتلكات ، والحرصِ والعطف على الصغار واحترام الكبار ؛ ورذاذ من تحيات روحية صادقة ؛ وودٍّ عميم.. ويوم قدمت أرتالُ الجراد وجيء بالروائح العفنة وصار الناس يرون جرذاناً قميئة تقرض هناءةَ الأيام وخفافيش لم يبصرونها من قبل تلوَّثَ الفضاء وعمّت سماءَ الدروب والأحياءَ أنفاسٌ ذئبية لها لون الليل البهيم ، فاتكة بأشرعة النقاء وممزّقة ثياب الود اقتحمت الدواخلَ جيوشُ التطيّر وحشودُ التوجّسات. (مرّت تلك الليلة بساعاتٍ نواحٍ وكمدٍ وأحزان. قلقَ الأبُ وتكدّر.. لابَ وانكفأ.. أمّا هي فلم تعدْ تملك رصيداً من الصبر ولا حديثاً عن الجَلَد. قضت مولولةً ، باكيةً ، نادبةً ، وجلة. تهاجمها الكوابيسُ فتطيحُ بما تبقّى لديها من سدودٍ للتحمّل وتنهي آخر دفاعات العقل. ولا ندري إن كانت نامت تلك الليلة أم لا.. الذي ندريه أنها اندفعت على رعبِ البنت صباح اليوم التالي وهي تدخل ممتقعة وأصابعها تشير إلى بابِ الدار فسقطت عند عتبته.. تماماً عند صينيةٍ تحوي رزاً مطبوخاً

وطفلا لا يتعدى العام مشوياً بنارٍ هادئة صرفَ المتوحشون الساعات يتسلون على صراخه ، ولوعته ، وصمته ؛ ومن ثم نفاذ رائحة الشواء إلى أنوفهم.!!)..

٢٠٠٧/٥/١١

(٣) ذاكرة عين

لم يبقَ أحدٌ في المدينة يجهلها ، ولا ظلّت ذاكرةٌ لها شيءٌ من القدحِ دونَ الحِفاظ بتجسيدات صورتِها. بقوامٍ ناحلٍ هزيل تمر..

وبثقلِ همٍّ دفين تنوء.

ملامحُ وجهِها الموحل تشي بتاريخٍ من الألم واللوعة بينما ضوءُ عينيها الكسيرتين يبوح بتوالدات عتمة تخفي وراءها سيلاً من الجراح.

لم يُبقِ لها التجني سوى سطر تحكي فيه وحشية الإنسان حين يحتشد بالضغائن.

قالت لها الأيامُ حين اقترنت بذلك الزوج المهيب ورُزِقَت بالأولاد الثلاثة المتشابهين بالطلعة النيّرة والخُلقِ المبين والإيمانِ الحَسن أنَّ شريط السعادة لابدَّ له من انتهاء ، وأنَّ الخفايا كثيرةٌ لا تنتهي وهديرَها يأتي كسيلٍ جارف. وقالت لها القرينات من صحبها: "ماذا لو كان لنا زوجٌ مثل

زوجِها ، وأولادٌ كما أولادها! ".. يقُلنَ ذلك لا بدافعِ الحسدِ بل بطلبِ الأمنية. ولم تقل هي غير: "افعلنَ ما افعل ، واحرصنَ على ما أحرص. وستجدنَ كلَّ شيء في المسار الصحيح.".

كان ذلك قبل أنْ تتوجه أرتالُ الجراد ، وتهجم حشودُ الجرذان ، وتهيج بالوعاتُ الأرض فتثير الخنافسَ القميئة وتمتلىء الدروب بنذيرِ الشؤم القادم.

شهودُ العيان تحدّثوا عن مشاهداتهم لعدساتِ كاميرات ذكيّة التقطت مشهدَ المأساة وعرضت فحوى فيلم القتلِ الهمجي (الفيلم يبدأ بثلاثة ملثمين ارتدوا ملابسَ خرقاء وقد حملوا بنادق آلية فوّهاتها موجهةٌ نحو رجلٍ خمسيني وثلاثة شبّان يتقاربون بأعمارِهم وبهاءِ طلعتِهم يشبهونه بالملامح أخرجوهم عنوةً من بيتٍ متواضع وقد قُيدوا وعُصّبت عيونهم. تنتقلُ اللقطةُ صوب ملثمٍ رابع أعطى إشارةً سريعةً جعلت أقرانه يرصفون بحركات خرقاء الرجل الخمسيني وأولاده عند حائطِ البيت ثم تتحرك العدسة نحو امرأة أربعينية بدت شاحبةً وهي تَخرجُ مندفعةً من جوفِ البيت لترتمي عند أقدامِ المسلحين تتضرع وتتوسَّل. تقبِّل الأقدامَ وتتمسَّح بترابِ أرض المهيمنين فيما نظراتها المرتعبة تطيرُ إلى الزوجِ والأولاد الصاغرين. يركلُها قائدُهم بعنجهيةٍ

وبغض ثم يوجِّه فوهةَ بندقيتِه إلى رأسِها ويأمرها بالنهوض والدخول إلى بيتها. وفي اللحظةِ التي تواصل توسلها الهذياني تنطلق فوهات ثلاثة بنادق صوبَ الشواخص الأربعة وتصليهم بزخٍ من الرصاص ليتبعثروا على الأرض وتسيل دماؤهم دفّاقةً ؛ تختلط لتشكِّل مجرى واحداً. وفيما ينسحبُ القتلةُ وتأخذهم سيارةٌ كانت تنتظرهم تكون هي قد فقدت السيطرةَ على أعضائِها وتاهت في غيبوبةٍ قطعَ الفيلمُ مداها الزمني.).

من يومِها راحت تهيم في الشوارع وتسوح في الطرقات ، صامتةً تشتري لفحَ الشمس وتقتني ترابَ الدروب. ليس لها إلا التيه مأوىً تلتجىء إليه لتغرق في ملكوته العتيم ، وبقايا ذكريات هاربة تأتيها شحيحةً مهشمة لا تزيدها إلا لوعةً وانكسار.

٢٠٠٧/٥/٢٢

(٤) تأثيثُ فضاء رماد

كلُّ نارٍ اججّت المواجعَ هجعت إلا نارُها ظلَّ أوارهُا يتصاعد!

وكلُّ أيامٍ أرّخت حشودَ أحزانها نُسيت إلا أيامُها استمرت تنزف حزنَ الناس وتأسيهم عليها.

كتب احدُهم في صحيفةِ الشقاء أنها امرأةٌ فاقت الرجالَ قدرةً في تحملِّها لوطءِ الزمن ، وأنها تلقَّت من سهامِ الغدر ما يَقهر عُتاةَ الصابرين فيرديهم صرعى الجنون.

تلتقيها النساءُ الصديقات فلا تحدثهنَّ إلا بالشفتين المتيبستين ، والوجنتين المتقشرتين ، ولوعةِ الثكالى. تصمتُ فلا تُجابَه إلا بالعيون تنضح مواساةً وشفاه تفوه: "آه ، يا أختنا أنت تُقطّعين شرايين قلوبنا بسكاكين اللوعة ، وتسحقين أرواحَنا بصخرةِ الشعورِ بالإثم في عدمِ مساعدتك.. أنت تدركين ، يا اختنا عجزَنا ، وقلّةَ حيلتنا! فالأحداث مهولةٌ ، والمجرمون عُتاة بلا رحمة ، ونحنُ نساءٌ في امّةٍ تمحقُ النساء ؛ مُجردات من أيّ سلاح إلا سلاح الدموعِ وتلقّي الصدمات".

تجوبُ الطُرقات فلا تحظَّ بما تبحث عنه. وتسأل مَن يمر فلا تحصد جواباً يمسك خيطَ الوصولِ إلى المُراد. قيلَ أنها نفضت من يديها صحونَ الغداء لحظة كانت منهمكةً في غسلِها فسقطت أرضاً وتهشمت كما تهشمت أعوامُ الحبيب السبع والعشرون فلفتت انتباهَ الأب الذي كان تائهاً في ارتشاف سيجارةٍ بعد قدحِ شاي ، وسببَّت في امتقاعِ وجهِ الأم التي كانت تجلس جواره ، وفجَّرت الحيرة

في وجوهِ الإخوة والأخوات المتوزعين في غرف البيت فيما تاهت الجارة التي نقلت خبرَ اغتيالِ جارِهم الشاب في غمارِ ذهولٍ عيني الواقفة عند حوضِ غسل الصحون. (في شريعةِ الغاب كلُّ شيءٍ مُباح.. وفي عُرف القتلة يغدو الذبحُ من عِداد إشباع الذات المشحونة بالكراهية ، ولا ندري - تقول الجارة - كيف توقفت سيّارةُ (الأوبل) الزرقاء ، متبوعةً بأخرى حمراء ، وكيف هبطَ منها حفنةُ مقنعين يحملون الكلاشنكوفات والمسدسات فأحاطوا به. سألوه عن اسمه! ووسط البهت والدهشة والخوف فاه به. لحظتها تبادلت العيونُ الذئبية من وراء سواترِ الحقدِ كلماتِ القرار فاندفع ثلاثةٌ منهم يسحبون يديه إلى الوراء ، ويوثقه رابعٌ بشريط بلاستيك لاصق ثم يلصق قطعةً من الشريط لتكميم فمِه فيما استلَّ خامسٌ من بين طياتِ ملابسه السوداء ساطوراً ، وبلمحة وبصرامةٍ وجلف راح ينحر الرقبةَ البشريةَ الصاغرةَ تاركاً العينينِ الذاهلتين - تقول الجارة - ترثيان أمّةً تخلَّفت فخلَّفتها الإنسانية في يمِّ الجهل والاحتراب ، وتركتها عاراً يلطِّخ صفاءَ صحائفِ البشرية.) بينما تركت الفتاةَ ترثي حبيباً فقيداً فقدت كلّ وسائلِ الترجي والتضرعِ والخشوعِ وطلبِ المعجزات في إعادته والعيش معه تحت سقفٍ

حياتي تعاهداً على إنشائه وتأثيث فضائه الذي أرادا له أن يعجَّ بأشذاء الودِّ والحبور. تمدُّ أصابعَ ناحلة لوَّثتها مبررات الإهمال لكفٍّ فقد نضارتَهُ إلى جيبٍ دفين بين طيات ثيابِها لتستخرج سكيناً ذا نصلٍ عريض يبرق بإشعاع يهاجم عينيها فتشحذه بعباءتها ، وتروح تتمتم: "بهذا سانحرُكم واحداً ، واحداً ؛ وإليه سأتوجه : أيها الحبيب! أيها السلسبيلُ الرائق. لن أدعهم يستريحون! سألاحقُهم فرداً ، فرداً. سأخضِّب يداي بحنّاءِ دمائهم ، حتى إذا انتهيت أتيتك أزفّ البشرى. لن أدعهم يعيشون طلقاءَ وأنت تحتَ التراب تختنقُ بغبارِ الغدر ، وهم فوق الأرض يعيثون ذبحاً. خذه منّي قَسَماً ، وأسمعه تعهداً."

تُعيدُ السكّينَ بين طيات ثيابِها ، متلفّتةً ، حَذِرة. خائفة من أنْ يشاهدها احد فيجرده منها عنوةً.

لا تريد لهذا أنْ يحدث ،.. لا تريد!

لأنَّ استحالتَها عزلاء سيتبددُ القَسمُ ، ويتلاشى العهد!

إذّاك ستتوجهُ إليه ميّتةً غيظاً وكمَداً.. فتلتقيه مؤكَّداً بعينِ المنكسرةِ ، الفاشلةِ ، الخائبة.

٢٠٠٧/١٠/٢٦

(٥) لوعة وازدراء

الفايروساتُ السابحةُ في فضاءِ يومِها هي التي أثارت فينا فضولَ التتبّع. والمشهدُ الذي تجسّد إزاءنا هو ما دفعَنا لتدوين الصورةَ. أمّا الحدثُ فليس إلا من إخراج وحشيةٍ جمعت دناءةَ العالم ، وحيوانيةِ الإنسان ، وغضبِ الفواتك.. تتبّعناها آملين الوصول إلى تخومِ النتائج وليدةَ أسبابِ هياجِها الجنوني أو ذهولِها الكسول. هي التي جاءت بلا تاريخ ولا مقدّمات لتدخل حيّنا.

انتصابةٌ متهالكة ، وعينان سائحتان ، وشرودٌ قادم من عِداد تيه العقل. ظنّها البعضُ وليدةَ جنونٍ أزلي عضوي ؛ واعتقدَها آخر فاقدةَ وعي هاربٍ قد يأتي يوماً ليُعيد إليها هيبتَها ، فيما ظنَّ القلَّةُ من حيّنا أنَّ للمرأة ما يبرر وصولَها لهكذا حالٍ مثيرٍ للرأفة ومؤجِّجٍ للأسى ؛ لكن ما هو!

سمعنا رجالَ حيّنا يقولون : دعوها لحالِها فلا بدَّ أنها امرأةٌ ثكلى.

وسمعنا أحدنا يفوه: لا تبدو غريبةً! كأنها صورةٌ لأمهاتنا.

وتمتمَ رجلٌ تفرّسَ فيها طويلاً ، ثم تنهَّد: "إنَّ وطناً تتقهقر فيه المرأةُ هكذا لهو وطن لا تتوجَّه إليه إلا بازدراءٍ

ومقت ، وقَرف.

ما سمعناه من كلامٍ راكمَ ترابَ الفضول ، وأججَّ غبارَ الاستفهام!

ولأننا صغارٌ استقبلتنا على قارعة الطريق / على رصيف مهملٍ فاستبدلت الشَّدَهَ بالنباهة ، والشرودَ بالاتزان.. وباضمامة موجة حنين جارفة ضمَّتنا إلى صدرها وهي تهمس: "يا أولادي لا تلعبوا هنا. سيأتونكم ويطفئون الشمس ؛ سيصلونكم ويقطعون رؤوسكم وأذرُعكم.. سيشجّون بطونَكم ويتسلون بتمزيقِ أمعائكم.. لا تأمنوا الدهاء/لا تصدقوا المراءات.. أولئك في الغي يعمهون ، وفي بغضِ الشياطين يعومون.. لا أحد يوقفهم"..

تتوه قليلاً ثم تروح تفوه: "لقد نسيَنا الحقير فلم يقتص من قتلة أهلي.. لا يستحق الاهتمام ؛ ومن الجنون أنْ نبقى مخدوعينَ به.. "... ترفع رأسَها وتبصق. لا ندري إلى أين! فيسقط بصاقها رذاذاً كالمطر فوق رؤوسنا جاعلاً إيّانا يفكر كم هو عظم حقدها عليه ؛ ذلك الذي لم ينصفها فجعلها في هكذا مرارةٍ وضياع... رمتنا في يمِّ الذهول ، فاندفعنا نستفهمُها بشيءٍ من الحيرة.. نتساءل مدهوشين: "مَن؟! مَن تقصدين؟!....."

لم نحصد فحوى الرد ؛ لأننا ما أنْ انهينا السؤال

وانتظرنا ما تقول حتى نهضت..

نهضت وعلاماتُ ازدراءٍ توشِّح قسماتِها ، وهي تتمتم:

"ما زلتم صغاراً على معرفةِ عجزه وخذلانه ؛ ذلك التافه القميء."

السماوة ١١/ ٦ / ٢٠٠٧

❖ نشرت في صحيفة الصباح العدد١١٧٥ يوم الأربعاء ١ آب ٢٠٠٧

من بئر الأسى

(١) ما هكذا أردتُ لكَ

ـ ما هكذا أردتُ لكَ!!

وكان الرجلُ لا يُجيب. وكانت هي بكلِّ حرقة وجزعٍ تضربُ فخذيها بباطنِ كفّيها وترفع أناملَها لتنهشَ بأظافرها النافرة خدّيها الممتقعين:

ـ لقد أذقتني تعاسةَ العيش وسيلَ النكبات ؛ أنا التي قضيتُ خمسةَ عشر عاماً من الذُّلِّ والقهرِ والإجحاف. لا وجهَ لي بين النساء ، ولا صوت لي بينهن. جعلتَ من صغاري هزءاً للناظرين وتندراً للمتفكّهين.. آ ، ، الرائحةُ ليلُ نهار تعطُّ زنخةً من فيك. دخانُ الحانات الرديئة يتغلغل في ثنايا ملابسك / يتداخل في شعرك / يملا إبطيك/ يتكلَّس بين أصابعك. أقول: اعقل يا رجل!! ذهبت سنين العبث وأقبلت نهارات العمل ، والتفكير بالقادمات من أمنيات أبنائنا.. أبناؤنا الذين صرنا نجد في خُطاهم مرايا لحياةٍ

صرمناها نهيل الأخطاء ونراكمها خطأً فوق خطأ ، فوق خطأ ، حتى غدت الأخطاءُ جبالا لا تذروها بقايا أعوامِنا ، ولا يُدنيها كبيرُ ندمنا."

وكان الرجلُ لاَ يُجيب...

جمعٌ من نسوةٍ يُحطنها / يتأسَّينَ عليها ، يذرفنَ الدموعَ ساخنةً. ينظرنَ إليها تتفرس في وجهه الشاحب ، تتابع التجاعيدَ تضرب أطنابَها الصفر على كلِّ حيزّ من وجنتيه ، والدكنةُ الزرقاء تطوّق العينين المغمضتين/الغاطستين داخل محجرين ناتئين.. صرخت بصوتٍ مبحوح مزَّقهُ طولُ النواح:

ـ ما الذي تركته لي غير اللوعةِ والأسى ، والضياع؟!.. قلتُ لا يضرَّنَّكَ صغرَ بيت يضمنا ، ولا غرفاً ضيّقةً منحسرةً نأوي إليها فالقناعةُ اثمنُ من كنوزِ الدنيا... لا يؤلمنك رؤية أولئك البعاد بسياراتِهم الحديثة ، الصقيلة ، ولا انتفاخ كروشهم. أولئك يا والد أبنائي يحبّون الدنيا عَبَثاً ويجنون المال سُحتاً.. آ.. كم قلتُ لك لا يغرَّنك هذا السم اليومي ، تحتسيه/ تحسبه خلاصاً وما هو إلا اجترار للألم ومجلبة للبلايا. وهاتِ لي من حاز أملاً باغترافه!!"..

وصمتت.

طفقت تتفرَس تطالع وجهَه الجامد. خالته يصرخ بها كعادتِه كلّما عاد مخموراً: "اغلقي فمَك"... ضربت فخذيها بباطن كفّيها. شعرت أنَّ ساعةَ العتابِ الأخير قد حلّت. لا خشية بعد الآن ؛ ولا شيء لديها يمكن إخفاءه:

_ خمسة عشر عاماً! كنتَ في مبتداها الزوجَ الشهم ، العاملَ القنوع. ساعداك المفتولان يوحيان بقوتي ، يهباني المباهاة... واآآآآ.. من ذلك اليوم المقيت بليلته الرعناء ساعة جئتني غريبَ الملامح. تريل كالمعتوه. الكلمات مبتورةٌ تسيل مع اللعابِ المنسكب من فمك. ظننته داءً غزا جسدَك ففتكَ بك. فزعتُ! بل كنتُ على وشك أنْ أتفتت أنا. لكنَّ الرائحةَ وشت بكَ.. آ الرائحة!!! من يومِها و مخلبُها ينهش مساربَ حياتك. عبثاً باءت جهودي وتعثَّرت.. آه.. يا خيبتي. قتلكَ يأسُكَ ، وسهامُ الإحباط مزَّقت بقايا النور السابح في مداراتِ أيامِك !.. لماذا تركتَ الأمورَ تؤول إلى هكذا حال؟.. لماذا؟!

وكان الرجلُ لا يُجيب...

وكانت هي حائرةً لا تدري ما تفعل! وما إذا كانت ستنام تلكَ الليلة بلا طرقاتٍ توقظُها خلال ساعاتِ الليل المتأخرةِ ، فقد حُمل الجثمانِ من أمامِها ، وبقيت هي

تحدِّق في الفراغ.. أجنحةُ الحزنِ تحومُ حولها وشفراتُ الكمدِ الجارحةِ تفتكُ في صدرِها ، فتتمتم متأسيةً ، جزعةً:

ـ ما هكذا أردتُ لك !!

مايس ١٩٩٤

(٢) خذلان

على جلبةٍ وفوضى ، وهمهمةٍ تتبيَّن نفسَها غارقةً في ظلمةٍ غرفتها. تدرك أن الليل ما زال ينبسط بساعاته ، والأشياء تستكين تحت سطوته وثقله.. إذاً ما كل هذه الفوضى في الزقاق؟

تنقبض أنفاسها بغتةً عندما تمد يدها فتكتشف فراشه خالياً.. يا إلهي! أتراه أعادها ثانيةً؟!. تساورها خشية أن يستفيق الصغار إن هي نهضت فأشعلت النور ما جعلها تنهض فتتحرك على هدي لمس الأشياء الغارقة في العتمة.

تخرج إلى الحوش ثم إلى الممر وصولاً إلى الباب الرئيس التي تُطرق تلك اللحظة... تبصر شبّاناً يُشحب ضوءُ مصباحِ الزقاق وجوهَهم. يمسكونَ به ، محاذرين أن تمسَّ ملابسَهم الأنيقةَ ملابسُه المعفّرةُ بالتراب والماء الملوث

برائحة تثير القيء؛ يقولون أنهم وجدوه منكفئاً في الدربِ فأثارهم خوفُ دهسه من قِبل عربةٍ عابرة أو سقوطه في أحدى فوّهات المجاري العميقة.

تسحبه.. تغرقها دوّامات الخجل والشعور بالخزي.. وتشكهم على حسن صنيعهم.

وإلى الحمام تقوده محاولاً الانتصاب ومتكلّفاً في إظهار مقدرته على السير. تخلع ملابسَه، وتُجلسه تحت رذاذ الدوش / مُصوبنةً وجهه وشعره وباقي جسده؛ مُزيلةً الرائحة المقرفة... أمّا هو فيسمعها من بين محفّاتِ الخدر ودركاتِ الغيبوبة تعلن ألماً موجِعاً وحزناً لا يبلغه حزن:

ـ لماذا يحصل لك هذا؟!.. ما الذي أوصله إليك؟!

يوشكُ على الإفضاء بخيبة أمل تفجّرها في رأسه منابت حياةٍ لم تعده إلا باستحالةِ الأماني وتردّي الآمال ومستقبل لا يرى على محفّاتِ افقهِ غير ضبابٍ كثيف.. كثيف.

ينفجر منتحباً في محاولةِ تبريرِ خطأ يعاود ارتكابه.

ـ كل يوم تجعلني احقد عليكَ(يسمعها تقول)وكل يوم تمسح هذا الحقد ببكائكَ!! إلى متى استمر متحملةً خطاياك؟!.. غداً سأترك لك البيت والصغار وأهيم في طرقات الله.

تلك الليلة كانت تسرق هنيهات نومٍ يسيرةٍ على أمل النهوض لتتركه والبيت خلفها ؛ لكنها استيقظت على فراشٍ يخلو منه.

ترتبك.. تتركُ الغرفةَ متهجسةً.. تنادي عليه فلا تسمع ردّاً. تتفقدُ الغرفَ والصالةَ ، وتنتهي بالمطبخِ.

مرمياً على الأرض الأسمنتية الداكنة أبصرته ؛ وثمة قنينة دواء كانت بالأمس ممتلئة تقبض عليها كفّه بتشنّجٍ صارخ.. وعلى مقربةٍ كانت الثلاجةُ مُشرعةً ، والبابُ تدفعُ هواءً ما استطاعت شدّةُ برودتِه على انتشالِه من براثنِ الصمتِ المستديم.

(٣) صفحة ذاكرة

هكذا وبرؤية رصاصية داكنة تتلظّى على قارعة الكمد لمح جدران غرفته تلفظ طلاءها وما تحته من طلاءات قديمة سائحة سيولاً متعرجة أو سائبة باستقامة ؛ وربّما سمع هديراً أو دفقاً لهذا السيح/الانجراف نزولاً. لم تحتمل هيَ نفورَهُ وهالها ابصاره يتقوقع ضموراً وينسحب انكماشاً رغم صفاء الطريق ويناعة شجر الحديقة التي برحاها توّاً لأنّه طلبَ العودة كي يشحذ نصال التقهقر

بين جدران غرفته الأثيرة. وحيث أدخلته وأغلقت خلفه الباب طالبته كما المرّات السابقات: عدني أن لا تعيد نغمة الحزن في ترانيم أفكارك.. هي تدري أنَّ الوعدَ الحق لديه لا يعدو أمتاراَ من اللحظات الآيلات إلى التبدد.. ينجني!! ممارسة مهمة التطلّع من حافة السرير تجسِّد فضيحة ارتفاع عمق الطلاء.

يصيح بها: سيغرقني السرير. الطوفان يعلو..!!يصيح.. يصيح فيفاجأ بصوته تواشيح تترى ؛ وفاتحات لأناس تبعثروا أشلاءَ وما دوِّنت أسماؤهم في قراطيس الوفيات لأنّهم بلا أسماء ولا ملامح ، فقط آهات ترتفع وتعلو ، كالعادة يبصرها تتكدّس على البدلة الكاكيّة لصورة الشاب المعلقة أسفل السقف المُعتد بانتصابه ، ماحيةً بريق نجيمات يراها اللحظة تمزّق نسيج الكتفين ثم تؤول سقوطاً في زبَد الطلاء الذي يتعالى ويحسّه بعد اللحظات المتهافتة ليغرقه مع تهالكات الأثاث الجاثم كشواهد صامته.

(٤) مناجـاة

بين حين وحين تأخذ بي خطاي المرتبكة عبر دروب متصلّة تُفضي إلى بابٍ عريض وجدارٍ عالٍ تجثو خلفه أجداثٌ ترنو بصمتٍ موحشٍ كئيب إلى أيّما صوت يأتيها من عالمٍ متجافٍ خئون.. وهناك خلفَ شجرة السدر الوحيدة التي تحتويها المقبرة وبين القبور المستكينة يقبع قبرُها الصغير متهالكاً ، بائساً كأنّه قيسَ بجذرٍ على جسدها الضئيل _ أتذكرُك يا ليلى وكأنّ السنوات المتراكمة التي ما عدتُ أبه لحسابها قد تلاشت ، وها أنا صرتُ رجلاً ، وصارت لي زوجة وأولاد يسألونني بإلحاحٍ عن ذكرياتي وأيامي الهاربة. فأعود وأرى وجهَك فتيّاً وعينيك تطفحان لهفةً للحياة).. آ.. كم كنتُ أسألُك عن سرِّ الشحوب الذي يكسو وجهَكِ ويتفاقم يوماً بعد آخر. كنتِ _ يا لحسرتي _ تخفينَ اجابتكِ بابتسامة تحاولينَ نقعها بصبغة اللامبالاة ، ولم أكن أفقه كنهها آنذاك إلاّ حين تهاوت الشمس وأفلَ ضوءُ القمر ، وما تناهى إليَّ من أنَّك رحلتِ إلى مدينة في الجنوب تزورين أقرباءَ لكِ يتحرّقونَ شوقاً ؛ ولم أدرِ أنّه سيكون غياباً أبديّاً ، ولم أدرِ إلاّ وأنا أتلقّى ورقةً صغيرةً موشّاة بالحنين سلّمتني إيّاها

أختكِ الصغيرة ، كتبتِ فيها: "وداعاً.. وداعاً ؛ ربّما يطول غيابي فاعلَمْ أنَّ روحي ستبقى فاختةً مفجوعة تحطُّ على شجرة الزيتون الناهضة في فناء داركم لتغنّي لكِ أغنيات الشجن أو عصفورة تحط على نافذة أيامكَ القادمة لتنشد لكَ ترانيم الوفاء". يومها بكيتُ ياليلى! بكيت بكلِّ عنفواني وصبري وضياعي. عزمتُ أن آخذَ قطار الجنوب صوبَ المدن البعيدة والقرى المجهولة المتناثرة هناك بحثاً عنكِ. غير أنَّ هاتفاً خذيلاً جعلني أستكين ، متّخذاً الذكرى عزاءً لي في غيابك... رحتُ أنتظُرُكِ! (أنتظر يوماً سيأتي نلفُ أزقّة السماوة عدواً ، نطوف في حواريها الوديعة. نقف على أعتاب جسرها العتيق. نلقي بأنفسنا في عرض الفرات ، ثم نعود تبللنا أمواه الحيوات الكامنة فيه مفعمين بالأريج المحتشد على ضفتيه). لكنكِ ما عُدتِ... حملتكِ بقسوتها المُجحفة عرباتُ الظلمةِ الأبدية فخبا بريقُ عينيكِ وانطفأ ؛ ولم تشفع براءتُكِ وسنوات فتوتكِ اليافعة... وها أنا أعدُّ على شاهدة القبر الرخامية أعوامَكِ الخمسة عشرة. يأخذني الحزن ، وتهرم سنواتي المتزاحمة. تشيخ وتتلاشى فأتيه في مفازات الرغبة والانتظار للقائنا السرمدي ، ولحظات الاحتضان السديمية.

(٥) سريالزم

والرجلُ ما صرَّح عمّا خبأهُ. كذلك الصندوق استمرَّ مغلقاً ما بين الفودين أو خلف العينين ؛ لكنّ ذات مقهى صاخبة تستحمُّ بالمساء ارتدت الوجوه حواجبَ وأفواه ، وحتّى وجنات ليست لها/أحاطت به. ضحكات تتقدّمها أسنان ، ونفير عربات تلاحق الطريق خلف الواجهة المزججّة أو بين مسارب الأحلام الفائضة عن الرغبة.. زرعوا الأفواه إذاعات لها برامج رمادية النبرات ؛ تراتبية. العدد السادس يبدأ من هنا. لا فرق عن السابع الذي يليه أو الخامس الذي يسبقه.. محطّات ضحك.

على هدي العثرات التي لا تعرف الدروب اقتربت طفلة لعمر الأشبار الخمسة ارتفاعاً. قالت: أبي! وكانت تشير إلى الرجل الذي ما صرَّحَ عمّا خبأهُ. مدَّت كفّاً صغيرةً باتجاه غيمة لها لون الهواء ؛ طافت أعلى الوجنات داخل المقهى أو ربّما خارجها ، وحلَّت شريطاً ورديّاً يعقص خصلة شعرها الشمسي. هفهفت به... غير أنها لم تقل أبي هذه المرّة ، لأنَّ الوجوه أكملت خلع الحواجب والأفواه وحتّى الوجنات ، ولم يكن الأب هناك..! هناك كانت المقهى صاخبة والإذاعات أفواه تضجُّ بالرماد.

(٦) بيت مقفل

هوى رقّاصُها بكلِّ نزقه ولا مبالاته فدوّى رنينُه في فضاء الغرفة وتناثرَ في الفناء المحيط ؛ إذّاك أدركت هي تأخرها عليه. نهضت ؛ تهندمت وتعطّرت ؛ وألقت نظرةً على المرآة كأنَّها تسعى لتمزيقِ حجاب التردد.. فوارقُ السنين ، وبرازخُ العواطف تتلاشى إذْ تسرحُ خيولُ الخيال وتنطلق صوبَ ضيعتَه المُشمسة.

في مخدعه تجد دفءً وحنيناً وأنفاسَ تأخذها إلى شطآن كانت عسيرةً عليها الاقتراب من حدودها. (آه.. على مروج الحنان وأفياء مُلاحقة عيون الوالدين كانت تبصرهم يعدون ويمرحون. كركراتُهم تطيرُ مع النسمات ، وكركراتها تختنقُ لائذةً في زوايا صدرِها فتموتُ في قلبها الصغير. أقدامُهم باندفاع ترتفعُ عن الأرض بينما قدماها تصطكّان ، تتصمّغان كأنَّ شيئاً ما يشدّهما إلى الأرض. لا أحد ينادي عليها ، يحذرها. تجفل.آه.. ــ تتحسَّر ــ يا أبواي لو كنتما معي!). ستجدهُ يتلوّى ، يحرقُ سنواتَه الأربعين فوقَ جسر الانتظار ؛ تمتلىءُ منفضةُ سجائره بالأعقاب المحترقة وأنصافِ السجائرِ المدعوكة. ستجد فراشَه المبعثَّر وملابسَه المتناثرة بإهمال. سيصرخ بها غضباً لتأخرها ؛ لكنَّها

ستُطفىء هياجَه ببرودها. (منذُ صِغَرها تعوَّدت أن تثلج قلبَها واضعةً أعصابَها في صقيعِ الصبر والتجلّد. مُذ كانت تحملُ حقائبَهم خلفَهم وترعى صغارَهم. مُذ افتقدت نومَ الفجر الجميل كي تجلب لهم الخبزَ الساخنَ وصحونَ "القيمر" الطازج وتعدّ لهم طعامَ الفطور على المناضد المُهيأة بإتقان).. قالت لسيدتها المنشغلة بمتابعةِ برامج التلفاز أنَّها ستزور أقرباءَ لها وقد تتأخر قليلاً.

استقبلها الشارعُ العريض ؛ وعلى رصيفه جعلت خطاها تتسارع وصولاً إلى الباص الذي أقلّها إليه.

عند الباب الرئيس ، وكعادتها مدّت كفّاً عبر مشبَّك الحديد. سحبت المزلاج ــ في رأسها أعدَّت مراسيم الاعتذار ــ وصارت على وشك الدخول عندما جاءها صوتُ رجلٍ عجوز يسكن الجوار:

ــ لا أحد هنا ، يا ابنتي. الأستاذ سافر إلى العاصمة.

ــ متى؟!... هتفت بذهول.

ــ هذا الصباح.

صُعقَت. لا تعرف كيف تنطُق فتسأله السبب ؛ لكنَّ الرجل أَدركَ حيرتها:

ـ سمعنا أنّه قرر الزواج ، وذهب ليبدأ مراسيمَ خطوبته هناك ، وأنّه....

ـ كفى!.. كفى!... صرخت به ؛ وفي سرِّها رددَّت : آه ، لقد قتلتني.

أحنى الرجلُ رأسَه خشيةَ التقاء عينيه المتأسيتين المتابعتين لمجيئها المتكرر من قبل بنظراتها الذهيلة التي رحلت سريعاً تبحثُ عمَّن ينقذها من هول صدمة لا قدرة لها على امتصاصها. شعرت أنها وحيدةً مقذوفة. احتواها فضاءٌ أخذت فيه الشمس تتخلّى عن مملكتها تاركةً عتمةَ الغسقِ تشيعُ دون مراعاة للقلب المُحاصَر الذي تفجَّر ، وللعينين اللتين طفحتا بدمعٍ دافقٍ غزير.

السماوة خريف ١٩٩٧

من فيوض العشق

(١) انعتاق

كما السكارى كانا يتهاديان ؛ تعلوهما سماء مقمرة ويحتويهما سكون تناغيه مويجات تمس الشاطىء الرملي بحفيف رهيف. مصابيح المنارة الشاهقة للمسجد المشرف على النهر تدلق أنواراً تترقرق في انسيابية الماء. يستنشقان رائحة الرمال التي غسلتها شمس النهار ؛ وينعمان بنسمات رخيّة تمس وجهيهما قادمة من بساتين مترامية تتاخم النهر.

ـ عجباً ؛ كيف أغريتني فجعلتني أنتزع نفسي من شدقين هائلين: أهلي والظلمة؟!

فضحك ؛ وجاءت ضحكته همساً:

ـ أنتِ التي دفعتني لأطلب إليكِ المجيء.

هتفت باستغراب مفتَعَل:

_ أنا...؟! أنا أيها المجنون؟

توقَّفَ يرمقها مستعيناً بضوء القمر:

_ أتسمّين هيامي بك جنوناً ، يا جاحدة؟

_ وكيف يكون الجنون ، ونحن نسير في هذا الليل المسكون بالأشباح و مخلوقات النهر الغامضة؟

صمتا قليلاً...

كان صمتهما تقديراً للحظات جذل تعيشها اللحظة.

وكان صمته استنطاقاً لفرصةٍ عزمَ على الإفشاء بها بعد أن تداولها في سرّهِ كثيراً.

قال يسبقها في كلامٍ همَّت النطق به:

_إذاَ سنخرج غداً إلى النور.. كفانا تخفّياً كأننا لصوص.

امتدَّت كفُّهُ تلثم كفَّها فاشتبكت أصابعه مع أصابعها التي اعترتها ارتعاشة مفاجئة.. لم تفقه كلامه لأولِ وهلة فتوقفت ؛ ثم شهقت:

_ أحقّاً ما تقول؟!

_ نعم!... كانت إجابته الواثقة: ألا ترين أنَّ لقاءاتنا باتت كافية لنخلق عالمنا المتآلِف؟

تقارب جسداهما وتماسّا وهما يواصلان سيرهما في وقت كانت نظراتهما ترتفع مع ارتفاع قوام المنارة لتستقر على كتل المصابيح فتشتعل أنوار السعد في روحيهما ويعمدان إلى الصعود صوب الشارع المُضاء دون خشيةٍ ــ هذه المرّة ــ أو تردّد.

(٢) احتشاد

مُذ غادرت البيت وتوجَّهت صوب دائرتها والنشوى تغرقها ، ونسيم الصباح يضمّخ وجهها.. الرؤى في جنبات مخيلتها تستحيل مشاهد رياض وفراديس راكضة باتجاه الأفق.. توالدت في رأسها كلمات تفوّهتها بعذوبةٍ ، فهمست في جذل: "ياه! أهكذا يحس الشعراء وهم يطلقون القصائد؟!"... السيارات المارقة على جانبها تبدو لها بؤراً من حيوات متنقلة. والرصيف الممتد أمام ناظريها شريطاً عشبياً يحثّها على الجري. الصغار المسرعون إلى مدارسهم تراهم عصافيرَ خضَّبتها الألوان الفائرة بالزهو.. (آ.. محمود !! محمود!... كان الاسم يتردد على لسانها لمرّات لا تحصى ؛ لكأنها تحت هذيان متواصل).

توقفت إلى جانبها سيّارة صالون صغيرة ؛ وسمعت

من يناديها من الداخل. أدارت وجهها ؛ وجدتها زميلةً لها في العمل مع زوجها دعياها للصعود ، فأبدت تشكّراً فيه رقّة وامتنان. تركاها وبريقٌ يسبح في بحر عينيها المؤتلقتين ، وابتسامة على وجهها تكافىء رحيق داخلها المحتشد. (رنين الهاتف مساء الليلة الفائتة ما زال مستمراً في مسمعها ؛ والصوت القادم من بعيد تتكرَّر نبراته: فاتن! فاتن!.. آ ؛ لم تعد لدي القدرة على الابتعاد عنكِ. صرتُ كَمَن يبحث عن شيء أضاعه. العيون التي تحيطني ترسم لمسات طلعتكِ ، والشفاه هامسة أسمعها تتنغَّم باسمك.. أهيم كالممسوس في حواري "السماوة". أخرج من شارعٍ لأدخل آخر. جوّالاً أذهب إلى الفرات ؛ هناك حيث المصطبة التي تضمّنا في مواعيدنا المسائية. أجلس فأسمع مَن يسألني عنك. أتراني أسمع حقّاً؟!. لا أجيب. أنهض ؛ أهيمُ من جديد.).. مرقت من أمام بائع زهور فابتاعت باقةً ، ثم عاودت المسير.

في دائرتها طالعت وجوه زميلاتها تشي بدهشةٍ تشوبها التساؤلات لمرأى الورد. دخلت غرفتها ؛ سحبتْ جارور منضدتها الأسفل فأظهرت دورقاً كانت الأوراق القديمة تتناثر في زواياه (لقد أهملته منذ شهور يوم اكتشفت رئيس دائرتها يُطيل النظر إليها ؛ يُسمعُها كلمات مبطَّنة يُنهيها بأن

يقول: هل تسمحين لو اقتربتُ لشم ورودك. كانت تمتعض وتستعد لإلقاء كلمات الرد العنيف لكنها تتمالك نفسها خشية فقدانها العمل.).. دعت العامل الذي أسرع فتناول الدورق وأعاده ممتلئاً بالماء... فلّت بأناملها الدقيقة الخيط المطوِّق لأغصان الورد ، وراحت تدخلها غصنا فغصنا. حتى إذا فرغت منها استحال الدورق روضاً مصغّراً جعل زميلاتها ينهضنَ فيطبعنَّ قبلاتٍ على خدِّها الرقيق ، وهي بين خجلٍ ظاهر وبهجةٍ دفينةٍ تعبّر عن شكرها. تفيض عيناها بدموعِ فرحٍ رأت من بين تدفّقها محمود (هكذا رأت) يدخل عليها ليشهد لحظة الاحتضان والتحليق في عسلِ الجذلِ النهمِ ، والغرق اللذيذ.

(٣) بيت مقفل

هوى رقّاصُها بكلِّ نزقه ولا مبالاته فدوّى رنينُه في فضاء الغرفة وتناثرَ في الفناء المحيط ؛ إذّاك أدركت هي تأخرها عليه. نهضت ؛ تهندمت وتعطّرت ؛ وألقت نظرةً على المرآة كأنَّها تسعى لتمزيقِ حجاب التردد.. فوارقُ السنين ، وبرازخُ العواطف تتلاشى إذْ تسرحُ خيولُ الخيال وتنطلق صوبَ ضيعتَه المُشمسة.

في مخدعه تجد دفءً وحنيناً وأنفاسَ تأخذها إلى شطآن كانت عسيرةً عليها الاقتراب من حدودها. (آه على مروج الحنان وأفياء مُلاحقة عيون الوالدين كانت تبصرهم يعدون ويمرحون. كركراتُهم تطيرُ مع النسمات ، وكركراتها تختنقُ لائذةً في زوايا صدرِها فتموتُ في قلبها الصغير. أقدامُهم باندفاع ترتفعُ عن الأرض بينما قدماها تصطكّان ، تتصمّغان كأنَّ شيئاً ما يشدّهما إلى الأرض. لا أحد ينادي عليها ، يحذرها. تجفل.آه ــ تتحسَّر ــ يا أبواي لو كنتما معي!). ستجدهُ يتلوّى ، يحرقُ سنواتَه الأربعين فوقَ جسر الانتظار ؛ تمتلىءُ منفضةُ سجائره بالأعقاب المحترقة وأنصافِ السجائرِ المدعوكة. ستجد فراشَه المبعثَّر وملابسَه المتناثرة بإهمال. سيصرخ بها غضباً لتأخرها ؛ لكنَّها ستُطفىء هياجَه ببرودها. (منذُ صِغَرِها تعوَّدت أن تثلج قلبَها واضعةً أعصابَها في صقيعِ الصبر والتجلّد. مُذ كانت تحملُ حقائبَهم خلفَهم وترعى صغارَهم. مُذ افتقدت نومَ الفجر الجميل كي تجلب لهم الخبزَ الساخنَ وصحونَ "القيمر" الطازج وتعدّ لهم طعامَ الفطور على المناضد المُهيأة بإتقان).. قالت لسيدتها المنشغلة بمتابعةِ برامج التلفاز أنَّها ستزور أقرباءَ لها وقد تتأخر قليلاً.

استقبلها الشارعُ العريض ؛ وعلى رصيفه جعلت خطاها تتسارع وصولاً إلى الباص الذي أقلّها إليه.

عند الباب الرئيس ، وكعادتها مدّت كفّاً عبر مشبَّك الحديد. سحبت المزلاج ـ في رأسها أعدَّت مراسيم الاعتذار وصارت على وشك الدخول عندما جاءها صوتُ رجلٍ عجوز يسكن الجوار :

ـ لا أحد هنا ، يا ابنتي. الأستاذ سافر إلى العاصمة.

ـ متى؟!... هتفت بذهول.

ـ هذا الصباح.

صُعقَت. لا تعرف كيف تنطُق فتسأله السبب ؛ لكنَّ الرجل أدركَ حيرتها:

ـ سمعنا أنّه قرر الزواج ، وذهب ليبدأ مراسيمَ خطوبته هناك ، وأنّه....

ـ كفى!.. كفى!... صرخت به ؛ وفي سرِّها رددَّت : آه ، لقد قتلتني.

أحنى الرجلُ رأسَه خشيةَ التقاء عينيه المتأسيتين المتابعتين لمجيئها المتكرر من قبل بنظراتها الذهيلة التي رحلت سريعاً تبحثُ عمَّن ينقذها من هولِ صدمةٍ لا قدرة لها على امتصاصِها. شعرت أنها وحيدةً مقذوفة.

احتواها فضاءٌ أخذت فيه الشمس تتخلّى عن مملكتها تاركةً عتمةَ الغسقِ تشيعُ دون مراعاة للقلب المُحاصَر الذي تفجَّر ، وللعينين اللتين طفحتا بدمعٍ دافقٍ غزير.

السماوة - خريف ١٩٩٧

(٤) غمامات الغسق

على أوراق الذكرى التي تبعثرها رياحُ الأعوام كانت تنحت أمانيها ، متطلّعةً صوبَ أفق بعيد يجيشُ بأحلامٍ أنثوية تعومُ في رومانس الفراديس العليا (هي أحلامٌ التسامي والتطلّعات المترفّعة/ النفانيف المشجَّرة المزهرة/المساحيق الفاقعة/ عبارات التبجّح والتباهي والازدهاء. والفارسُ القادم يجب أنْ يكون كذا وكيت وإلاّ فلا فالخيال جامح والفناء فسيح ، وهُم كثرٌ كثرُ. يتطلَّعون فيعجبون. يُسمعونها عذبَ الكلام وجميلَ الإطراء. ولكنّ لا أحد ممَّن رسمتهم في الخيال يخطو إلى أمام.).

الأيامُ تعدو ، والمدى النائي رويداً ، رويداً يقضمُ قرصَ الشمس.. آ.. أينكم يا متهالكو الأمس؟!. وتلفَّتت كما لو أنَّ نداءً خفيّاً مُثيراً قضت الفصولَ بانتظارِه.. أُتراه جاء

لينتشلها من براثنِ اليأسِ والفراغ؟.. سترتوي إذاً أرضُها البور؛ ستينع وتثمر. تعيش التألقَ من جديد... أفردت ذراعيها وهتفت بكثافة الأسى المحتشد في قلبها: هلمَّ أيها القادم الموشّى بالندى وأريجِ الصباح. أجرني، لقد بتُّ أشهد بأمَّ ناظري ذبولَ الوريقات وانهصارَ المياسم. أتدرك أيها البعيد ماذا يعني انهصار المياسم؟. وتلفَّتت تدورُ.. تدور داخل غرفتها. رأتها تنحسر وتضيق فاندفعت خارجةً لتشهد النخلةَ التي تألّقت معها وتسامقت قد ذوت الآن وشاخت. تمرُها يتهاوى لأيّ هبّةَ ريح خفيفة فيتساقطُ أرضاً، مستحيلاً طُعماً للدود المُنتظِر المُنتشر بإفراط (تراجعت تتابع الوجوهَ الهاربة في ذاكرتها صوبَ مَجّرات النسيان وجهاً بعد وجه حتى أسفرَ بحثُها واستقرَّ على ذلك الذي قضى أياماً طوالاً يتهالك لكسبِ رضاها وسماعِ قبولِها فلم يجد منها آنذاك غير الفتور والبرود وحصاد الخيبة والجفاء.) مَن؟ وتلفَّتت! ثمّةَ طَرَقات واهنة على الباب الخارجي أثارت دهشتَها وفضولَها. حبست أنفاسَها لحظةً وهي ترفعُ الرتاج. سقطت نظراتُها على قوامٍ شاحب ووجه رشقت نظراته ذاكرتها المشوَّشة، فهتفت مستجيرةً: آ.. ها أنتَ تعود الآن! كيف تذكرتني؟.. رمقَها بعينين متَّقدتين واستدارَ غاضباً، تاركاً إيّاها تتصلّب كما

صخرة.. بعدها هبّت خلفه صارخةً تتشفَّع علَّه يتوقَّف فيغفر لها ويمرّ كفّاً تخفي ذؤابات رمادية اكتشفتها تتوالى بازديادٍ مستبيحةً شعرِها كلّما حدَّقت في عمق المرآة وتطلَّعتْ في وجوه فتيات يتخطّينها في الزقاق.

السماوة - ١٩٩٤/٨/١٠

(٥) حبٌ مُعاصر

نثَّ المساءُ غبارَه المُعتم فبعثره وهجُ المحلاّت ومصابيحُ أعمدة الكورنيش الزئبقية. طفت على وجهها وهي خارجة توّاً من الزقاق مسحةُ ارتياحٍ ، وابتسمت قليلاً لنسمات النهر الباردة ؛ (نعم ، لمحناها _ وكيفَ تفلّت منّا _ وهَب أنها فلتت فلنْ يُضيرنا شيء. بعد قليل سيأتي ليحكي لنا قصّةَ الفيلم من أوله إلى انتهائه.. خيالاتنا تتأجج ؛ ولا بدَّ هو الآن يُعيد ترتيب مكانٍ كان وإيّاها يلعبان فيه لعبة الجذل المثير). تتعثّر في مشيتها. لقد تأخرت عنده هذا اليوم دون أن تدري أنَّ لظى الجمر في أعماقنا يستعر مذيباً ما تبقّى من جبال الثلج ويحيلها مراجلَ ساخنة تنتظر مّن يُطفئها.

يمر الوقت بطيئاً ؛ وتمر أسرابُ العباءات ثم تختفي. تلتهمها عطفات الأزقة واستدارات الشوارع. لا خطى

تضرب قارعة الكورنيش سوى خطى المراهقين الخائبين ، وأناس أغلقوا دكاكينهم في السوق القريب.

ومن فم الزقاق أبصرناه قادماً ؛ منهكاً يجرُّ الأقدام:

ــ يا عم! كفاكَ خُيلاء. نحن نحترق وأنت تعوم على رغوة الخدر. أنتَ تعيش تفاصيل الواقع الصادح ونحنُ نتعكّز على خيالاتنا البائسة.

ــ لا.. لا.. صدّقوني لم أرها اليوم.

ــ أنتَ تكذب. تؤاخذنا على رهزات الخيبة التي نفعلها في الظلام.. إلى هذا الحد وصلت؟!

ــ لماذا تشككّون بكلامي.

ــ ولكنها خرجت قبل دقائق.

ــ أنتم مجانين؟!

ــ بل أنتَ المجنون!

لعدّة أيامٍ كانت تدخل الزقاق وتخرج ؛ وهو ينتظر في عرينه الذي استحال وجراً مرفوضاً.

ــ تعال معنا. إنها لم تعُد لك.ألا تصدقنا؟.. هاهاها. اتركوه. دعونا نذهب إلى سينما سمير أميس.. هيّا ؛ فهناك ستكون رهزاتنا ضاريةً على إيقاع الروك وفخذي مادونا الرخاميتين.

دمـاءُ مِنجَل خَثِـرة

لاحَ لهـا صـفيفُ النخيـل بدكنـة تـشبه حزامـاً مغـبرّاً ؛ وبـدت معـالمُ النهر البعيـد كـأفعى تلـوذُ مدفونـةً في غمـرةِ رمالٍ أدكـن ؛ والقريـةُ لا يبـان منـها سوى بعـض بـصيصٍ متناثرٍ بين مصابيحٍ كابيةٍ أرهقها الضبابُ الذي تعالى قبـلَ ساعات.. ما كان عليها الانتظار حتى تنجلي عتمةُ الغلس (هكذا حدست!) بل حثّت الخطى كما لو كانت تـسعى لتحقيقِ عهدٍ ضمنت إنجازَهُ... رأيناها مِن على عتبـةِ سلّم النزول إلى النهر (وكنا نجلس نطالع همودَ السلاحف على خثـرةِ الرمـل النـدي بانتظـار قـدومِها لنفجّـر في وجههـا هاجسَ الخشيةِ عليها) تبـدو كهالـةِ نـورٍ تتحـرك باتجاهنـا ؛ وما كان أحدُنا ليرضى عن صمتٍ وسكونٍ وعدمِ تحَـرُكٍ لولا لامبالاتها للخطرِ الذي سينبثقُ في أيّما لحظـةٍ ، ومـن أيـةِ ثغـرةٍ مكانيـة تخفـي وراءهـا حـشداً مـن الـدهاءات

المرسومة على الوجوه الذئبية التي تترصدها (كان لفتنة قوامها وخفّة خَطوها عذرٌ للآخرين في حَبْك الخيالات وبرمجة المكائد لنيلها والسعي إلى استحالتها واقعاً يتمثّل كأحد ممتلكات ألانا المتنرجسة) ؛ وكانت (هي) تمتلك ثقةً تجعلها تتحسَّب للمفاجيء فتعلن هيمنتَها وسيطرتَها واستحواذَها على مراءاته و مخططاته الزائفة. وكنّا (نحن) نرقُبُ هذا التقدم الواثق مسحوقين بصدى أقدامِ عزمِها على المضي. لا نريدها أنْ تواصلِ السيرَ لأنهم كانوا يرابطون ما وراءَ سورِ النهر لينقضّوا لحظة اقترابها فينزلون بجمالها وعفّتها والكبرياء هتكاً (لقد صّدتهم مراراً وهي تُعلن أنها تساويهم بالكلاب التي تنبح بمرورِ طريقها ، وأسمعتهم ثقيلَ الكلام وخزي القول فلم يألوا جُهداً في التحمّل والنسيان ، ثم التخطيط بما يُرهق قدرتَها فيدفع سدودَ تحدّيها إلى الانهيار ما يضطرّها للجوء إليهم في ساعةَ ندمٍ وإعلان تخاذل.).

تحركت وقد انبرى بكفَّها المنجل يتوثَّب لموقفٍ ستنهجه وترد على تبعاته بضربةٍ باشطة تبتر عنقَ الكيد ثم بأخرى تطيح بهيبة (تلال المكائد) ؛ وما كنّا نرى فيها غير المنتصرة دائماً. أمّا الآن فللخوف عليها والخشية من أنْ يمسَّها سوءُ فِعالٍ هو ما جعلنا نفكِّر بالنهوض من حافّةِ

سلَّم النهر والتوجّه إليها لمنعها من التقدّم وكشف الفخ الذي يُنصَب لها بإمعان. (الزوج الذي هاجر لبلدان نائية وخذلها بكت عليه ولأجله دموعاً من دم ، كما هشَّمت عند تخوم رغبة انتظارها لعودته أحلى الأعوام واشذاها ولم تعلن انه غدَرَها فمارسَ الجحودَ لوفائها.. وكانت أنّ بقيت وفيةً تنتظر ندمه ، والإخوان الذين اتكأت على جدار كبريائهم في ملمّاتها تبعثروا في أصقاع ألدنا بحثاً عن عيشٍ يقيهم ملوحةَ الأرض الزاحفة على هناءِ أحلامهم ويبدو أنَّهم آثروا العيش لصفاءِ بالٍ هناك فمارسوا فعلَ النسيان ولم يعودوا يتذكّرونها).. في البيت تركت وراءها ولدين وبنتاً يغطون في نوم بعدما أغدقت عليهم قبلاتها الحميمية ونظراتها الملائكية ، وأقسمت أنّ تُنشئهم على خصالٍ قلّما يؤديها الرجال من الآباء. وكنّا على وشكِ أنّ ننهضَ ونعترض طريقَها وهي تقترب أمتاراً عندما همست على مبعدةِ خطوة بصوتِ الذي يملك شيئاً ليقوله خلسةً بحيث لا يسمعه احدٌ غيرنا ، فائهةً: "اعرف ما تبغون قولَهُ فلا تنهضوا فتفشلوا مخططي"

واستمرت في خطوِها بلا توقف....

(وكنا نريد أن نتقافز لنخبرها بخططِهم لنفشلها.. كنا نريد أنّ نقول لها أنَّ احدنا جاءَ بالأمسِ ليسرَّ لنا باجتماعٍ

يعقدونه لاعتراض سبيلها والهجوم عليها في هذا الغَلَس لينزلوا بها فتكاً وتجريحاً وليتركوها عبرةً لحاملي الكبرياء المَصون).

الغَلَسُ ينثر رذاذَ عتمته وصفاءَ لحظاته ويوهمنا بانَّ الليل لن ينتهي ، وأنَّ المكيدةَ ستتحقق وفقَ مرسومِهم لا طبقاً لمرسومها ، وأننا نتحنَّط في ديجورِ ليلة حسبناها إمّا ستكون تأريخاً لانتصارِ الغدر أو حدّاً فاصلاً لانهزاميته.

استمرّت تتقدّم والعيونُ الرابضة هناك خلف ستارِ الدهاء شرعت تبرقُ ببهجة تُماشي الموقفَ والمخططَ المرسوم فيما عيونُنا تدفَّقت تنضحُ خوفاً ، وشفاهُنا تُفجِّر ارتعاشاً ، وأناملُنا تتشبثُ بما يَبرز من حافّات الدرب الذي نجلس عنده ؛ والنهرُ يدرك عُظمَ الخطيئة التي ستُرتَكب لكنَّه عاجزٌ عن الكلام ؛ والعتمةُ لا تريد لوشاحِها أن ينجلي.. استمرت وكانت على بُعدِ خطوات ليس غير عندما انتفضت جملةُ قامات دكينة منتصبةً كما لو كانت أشباحاً تبرز من جوفِ غورٍ عتيم.

دنت منها.. !

أحاطت بها.. !

كانت ساعيةً لتضييق الدائرة والشروع بافتراسها وانتهاك مقدرتِها عندما برقَ في عمقِ الظُلمةِ بريقٌ قوسي ؛

راح يضرب في كلِّ اتجاه (ورحنا نسمع دربكةً وهمهماتٍ تعقبُها آهات ، ثم سقوطاً لأجسام تُصدر أصواتُ ارتطامها صدىً متوالياً ، ما لبث أنْ توقَّفَ مُعيداً لليل صمتَهُ وسكونه).. لم نبصرها تعود.. حسبناها قُتلت بمختلف الطعنات ومُزِّقت من خناجرَ شتى. بكت دواخلُنا ولم نكن قادرين على النهوض والتحرّي والوقوف على خاتمةِ الصورة التي بدت لنا كالكابوسِ المرهِق الثقيل. خشينا من غيلةٍ قد تكون كميناً ثانياً يكمِّل متوالية الكمين الأول فننتهي إلى مقتلٍ بصورةٍ كارثية ستبكيه القرية بكل بيوتها ودروبها فانسحبنا مرتعبين دون أن ندري أنَّ حضورَ الصباح كشفَ لعيون القرية وأناسِها خمسةَ أجسادٍ ممزَّقة يعفِّرُها التراب ؛ وكشف للولدين والبنت الذين نهضوا من نومِهم على أمٍّ ترقدُ بنومٍ هانىءٍ عميق على غيرِ عادتِها ، ومنجلٍ لطَّخت بريقَه اللاصف خثرةُ دماءٍ سوداء غزيرة.

السماوة – شتاء ٢٠٠٥

مناجـاة

بين حين وحين تأخذ بي خطاي المرتبكة عبر دروب متصلّة تُفضي إلى بابٍ عريض وجدارٍ عالٍ تجثو خلفه أجداثٌ ترنو بصمتٍ موحشٍ كئيبٍ إلى أيّما صوت يأتيها من عالمٍ متجافٍ خئون.. وهناك خلفَ شجرة السدر الوحيدة التي تحتويها المقبرة وبين القبور المستكينة يقبع قبرُها الصغير متهالكاً ، بائساً كأنّه قيسَ بحذرٍ على جسدها الضئيل ــ أتذكرُكِ يا ليلى وكأنّ السنوات المتراكمة التي ما عدتُ أبه لحسابها قد تلاشت ، وها أنا صرتُ رجلاً ، وصار لي زوجة وأولاد يسألونني بإلحاح عن ذكرياتي وأيامي الهاربة. فأعود وأرى وجهَك فتيّاً وعينيك تطفحان لهفةً للحياة).. آ.. كم كنتُ أسألُك عن سرِّ الشحوب الذي يكسو وجهَكِ ويتفاقم يوماً بعد آخر. كنتِ ــ يا لحسرتي ــ تخفينَ إجابتك بابتسامةٍ تحاولينَ

نقعها بصبغة اللامبالاة ، ولم أكن أفقه كنهها آنذاك إلاّ حين تهاوت الشمس وأفلَ ضوءُ القمر ، وما تناهى إليَّ من أنَّك رحلت إلى مدينة في الجنوب تزورين أقرباءَ لك يتحرّقونَ شوقاً ؛ ولم أدرِ أنّه سيكون غياباً أبديّاً ، ولم أدرِ إلاّ وأنا أتلقّى ورقةً صغيرةً موشّاة بالحنين سلّمتني إيّاها أختك الصغيرة ، كتبت فيها: "وداعاً.. وداعاً ؛ ربّما يطول غيابي فاعلَمْ أنَّ روحي ستبقى فاختةً مفجوعة تحطُّ على شجرة الزيتون الناهضة في فناء داركم لتغنّي لك أغنيات الشجن أو عصفورة تحط على نافذة أيامكَ القادمة لتنشد لكَ ترانيم الوفاء.". يومها بكيتُ يا ليلى! بكيت بكلِّ عنفواني وصبري وضياعي. عزمتُ أن آخذَ قطار الجنوب صوبَ المدن البعيدة والقرى المجهولة المتناثرة هناك بحثاً عنك. غير أنَّ هاتفاً خذيلاً جعلني أستكين ، متّخذاً الذكرى عزاءً لي في غيابك... رحتُ أنتظُرُك! (أنتظر يوماً سيأتي نلفُ أزقّة السماوة عدواً ، نطوف في حواريها الوديعة. نقف على أعتاب جسرها العتيق. نلقي بأنفسنا في عرض الفرات ، ثم نعود تبللنا أمواه الحيوات الكامنة فيه مفعمين بالأريج المحتشد على ضفتيه). لكنك ما عُدت... حملتك بقسوتها المُجحفة عرباتُ الظلمة الأبدية فخبا بريقُ عينيكِ وانطفأ ؛ ولم تشفع براءتُك وسنوات فتوتك

اليافعة... وها أنا أعدُّ على شاهدة القبر الرخامية أعوامَك الخمسة عشرة. يأخذني الحزن ، وتهرم سنواتي المتزاحمة. تشيخ وتتلاشى فأتيه في مفازات الرغبة والانتظار للقائنا السرمدي ، ولحظات الاحتضان السديمية.

لقاءات عابرة

نلتقيها على قارعة كورنيش السماوة الفتي دوماً ؛ نحن الرائحين الغادين ، الساعين لتصيّد ضحكات الفتيات اللائي ولجنَ أبوابَ المراهقة منذ أيام. عباءتُها المهفهفة على القوام ــ الذي تُجاهد أن يكون متسامقاً ــ تشي بفوضى دواخلها المبعثرة. خصلةٌ من شعر أحالته الأصباغ الكيميائية ناريّاً متصلباً تتراقص على وجهها ؛ وخصلة نافرة طيّرها الهواءُ الهارب من أقصى الشمال ، وأخرى تتحيَّن زمانَ الانفلات لتنطلق.. الفستان برّاق باهر يشدُّ جسدَها فيُفضي الضمورَ في أعضائها التي عفت عليها الأيام فتخلَّت عن ديمومةِ بقائها بضّةً حيوية مُلفتة للانتباه. (يومها كنّا فتية ، وكانت هي ترفل ببهاء الشباب نلحظ العيون المشاكسة الوقِحة تلاحقها بنهمٍ شديد يصل حدَّ القظم من ألقها المشع ، وهي فراشةٌ راقصة تستعرض مفاتنَها. نقترب ابتغاء لفت نظرها لأيٍّ منّا.. العينان العسليتان تضيقان ، والشفتان التمريتان تتشنّجان ، ومرآةُ الجبهة البيضاء تضيق فنستلم

بحزنِ التلاميذ شهادةَ الفشل في الإقناع ، ونسمع الكلمات الساخرة تلطم آذاننا: "بعد عليَّ زعاطيط هذا الوكت!" ، فننكفىء حاسرين.

المساحيقُ فاقعة اكتسحت وجهَها سعياً لإخفاء تجعّدات دقيقة شرعت تستبيح أسفل عينيها الطافيتين على غمارٍ من كحلٍ كثيف. والجبهةُ/ المرآة استحالت شاشةً تعرّي وتجسّد طيّات الغضون التي من اليُسر عدّها. (إنها تتطلّع إلينا الآن. تستجدي نظراتنا ، وتُرهف السمع لمفردات علَّ أحداً يطلقها ببلاهة مَن يتعطّف على فقيرٍ مسكين. يقول أحدُنا : انظروا إليها! لقد ظنَّت أنَّ صباحات الندى دائمة وعصافير الهوى ستطير أعلى رأسها تُسمعُها السيمفونيات المنبعثة من الصدور المتلهّفة والقلوب العطشى.. ولكن!!) هيهات ، تفوَّهت بها شفتا الزمن. إنَّ ما فات مات.

تجاوزناها ، فالتفتت. وسمعنا صوت الحقد: "شباب طائشون لا يكفّون النظر إلى بنات الناس.".. لم نرُد ، فعيوننا كانت تستقبل الفاختات اليافعات اللاتي ولجنَ أبواب المراهقة منذ أيام وهنَّ يخطُرنَ بكل ألقهنَّ وعنفوانهنَّ فنعمد جذلين إلى إطلاق هتافات الإعجاب: سلاماً.. سلاماً مراهقات كورنيش السماوة.

زلّة مايس ١٩٩٩

مسافات الغيب

رحيل..

رحيل..

على خُطى الرحيل لحظَتهم يتساقطون : أوراقٌ ذابلةٌ/ شموسٌ منطفئة وليس لها قدرة على فعلِ شيء. الفصولُ تتجاوزها لاهثةً كأنَّها تستبقُ وصولَها نهاية أُجبِرَت على إدراكِها. الأبُ يذوي أمامَ عينيها ، وتلحقُه الأم. وتسمعُ من بعيد عن أعمامٍ لفظوا أنفاسهم الأخيرة غرباء وهم يأملونَ أحداً من قريبٍ أو بعيد يُيَمِّم رؤوسهَم شطرَ القبلةِ ليناموا نومتَهم الأبدية قريري العيون ؛ وأخوالٍ لهثوا مع الحياة ظنّاً منهم ستدوم ، فرمتهم بكلِّ غرورِها وصلفِها على قارعةِ الهباء بائدين خائبين ؛ وأخوات سبقنها العمر تتجعَّد وجوهُهن ويكلُّ بصرُهُن ، وتضمرُ أعضاءَ لهنَّ. أخوات كانت تبصرهنَّ يرفلنَ مزهوّات. أما الآن فالآهاتُ تترى تختزنُها صدورهنَّ ؛ كانت وإيّاهنَّ يملأنَ البيتَ مرحاً.

صغيرات يرقصنَ مثلَ فراشاتٍ وجدنَ الحياة جنّةً ودنّيا حبور. وكانت لهنَّ أمٌّ تحنو عليهنَّ ، وأبٌ يرى فيهنَّ القلوب التي ستحتضنه عندما ترمي به أعوامُ الكبر). وترى إلى نفسها تكتشفُ صفات كثيرةً وفيرةً صارت تختفي لتحلَّ مكانَها صفاتٌ أُخر. ذهب النقاءُ الذي يُعطِّر روضَ وجهها ، وجفَّ شعرَ الرأس ثم تعقَّص. الرقبةُ تغضَّنت. بشرةُ يدِها فقدت طراوتها ، ترهَّلت. آه _ صرخت في داخلها _ كيف؟! وإلى أينَ نُقاد؟ ما لنا نحصد سنوات العمر غمّاً وافتقادَ مَسرّات؟ لماذا تتهاوى أحلامُنا مضرّجةً بدماء الخيبة؟ ما الذي فعلناه حتى تؤول خطانا إلى هذا الدركِ من التقهقر والانحدار؟

تتيه في غمارِ الأسئلة ، يلفُّها الضياع. تحسُّ بأنَّها ضعيفة إلى حدٍّ لا يُطاق معه التأمل. وكمثلِ مَن تهشّمت أمامَها مرآتها الثمينة فحزنت ثم امتثلت لهيمنةِ مصير لا قدرة لها على تحدّيه كانت تحاولَ التجمّل بالصبرِ واجدةً في ملامحِ أولادها وتطلّعاتهم عزاء لها في الوجود (تفكّر بهم. تدري أنّ الحياةَ ستُبكيهم أضعافَ ما تُفرحهم. وستهشّمهم أكثرَ ما تبنيهم.. تدري بما تخفيه لهم مسافاتُ التيه ومداراتُ الغيبِ الرابضة خلفَ أستارِ سنيهم الآتية)

فتنكفئ مرددّةً بقناعة ناقصة:

ـ أريـدُها لكـم حيـاةً تنـأى عـنكم نهاراتُهـا الـضارية وتجفـيكم لياليهـا الـشاحبة. أنـتم يـا مَـن صُـرتم بقايـا نـورٍ لشموسي الذاوية.. أريدُها لكم.. نعم.. لكم أريدها.

السماوة - ربيع ١٩٩٤

خارجُ المَتن

شغف ومتحلقون

لحظةَ توقفَ هديرُ المحرِّكِ شرعوا بجدّيّة مُعدّة ، وهدف مقصود في النزول من مؤخرة السيارة اللاندروفر ، وإنزالٍ العدد: طبول ودفوف وأرقاق مع صنوج برونزية أحدثَ اصطدامُها صليلاً يشبه تصادمَ سيوفٍ تتبارى... وجوهٌ سمرٌ لفحها صهدُ الأرض وفحيحُ الهواءٍ تلمع جرّاء سيولِ العرقِ الراشح من الرؤوس أو الهابطة من الجباه على الوجنات البارزة.. سحبوا الأنفاسَ بعدما أتمّوا إنزالَ مقتنياتِهم وتحركت السيارةُ مبتعدةً.. خطوا ليتخذوا موقعاً مُعتاداً (إنهم يعرفون هذي الأرض الرملية الخلاء.. يأتونها كلَّ عامٍ ، وفي هذا الوقت الخريفي تحديداً ليؤدوا مراسمَ توارثوها عن أسلافهم وسط حشدٍ يزداد توالياً كلما ابتعدت شمس الظهيرة من معالم الواحة.) نمت همهمةُ

صدورٍ ، وابتدأ حوارُ نظرٍ تجاوزاً للكلام ، فالجميع يُدرك الأمرَ لكنَّ عيني الرجلِ الخمسيني الأسمر اللميع حامل الطبل الأكبر كانتا تطالعان حجمَ الحشد – المُشكِّل حلقةً واسعةً حول جوقِ أداء المراسم- وتبعثان نظراتهما إلى ما وراء التحلّق.. حين أتمَّ النظرَ استقرت دواخلُه.. حسب هذا العام لا يختلف عن الأعوامِ السابقة. لم يقل العدد ، ولم تهيمن سلطةُ صحونِ الأقمار الاصطناعية على أسطح المنازل في تبديد العادة السنوية. وشغفُ المتحلقين ما زال هو ، هو يتحيَّن البدء. لذا أيقنَ أنَّ لحظةَ التطلّعِ أزفت ، وأنَّ الكفَّ الماسكةَ بالعصا ينبغي أنْ تضرب ثلاثَ ضربات على قلب الطبل الذي يشدّه بحزامِ جلدي لكتفه ، ويسنده باستقرارٍ وثيق على بطنه.

تحركت الفرقةُ بأكملها تؤدي الفعلَ المُفتَرَض فارتجَّت دواخلُ الطبول الصغيرة المشاركة توافقاً مع أغشيةِ الدفوف ، واصطدمت أقراصُ الصنوج بعضها ببعض ، فتعالى الصليلُ يشقُّ الأرجاء. وتلقَّت الأرقاق نقراتُ الأكفِّ وأطرافُ الأناملِ تحت هيمنةِ مزمارٍ قصي مزدوج ينفخُ فيه رجلٌ أربعيني انتفخت أوداجُه ، واحتقنت رقبتُه ، وبرزت عيناه بيضاويتين.

وبانتباهٍ مُلفت تصالبت أنظارُ الجموعِ على حفنةِ شبّان

يتركون التحلّقَ البشري ويدخلون بؤرةَ الموقعِ ، قريباً من العازفين ليمارسوا – متماسكينَ كسلسلة – رقصةً منسَّقةً أساسُها النهوض بالجسدِ وضربِ الأرض بقدمٍ واثقة... اهتزت القامات ، وانحنت قليلاً إلى الأمام.. ارتفعت الأقدامُ وهبطت هبوطاً واحداً على إيقاع الضربات التوافقية.

بدت الشمسُ كأنها تمارس احتفاءها معهم فلم تزُد إلا سخونةً ؛ فسال العرقُ على الوجوه غزيراً ، وانحدر إلى الرقاب كالسيول ، وشعرَ العديدُ من الشباب المنغمسِ داخل الحشد أن عليهم إعطاء فرصةِ استراحة للمؤدين فاندفعوا يأخذون دورَهم بطاقة متأججة ورغبةً عارمة... عيونُ الحشدِ تتكاثف. تبعثُ بريقاً يعكس مزيجاً من حبورِ واندهاش... وتناهى صوتُ خجول لصبي يبدو أنه يشهد الطقس الماثل لأول مرّة: كم جميلٌ هذا الأداء؟!.. ولكن لماذا الكبار فقط يدخلون؟... لم يرد الكبارُ الواقفون وقد سمعوا تساؤله ، بل أجاب فتى يكبره بقليل: إنها رقصة (القانقا) ، لا يمارسها إلا الكبار لأنها صعبةٌ ومؤذية. انتظر حتى الغروب وستعرفَ الجواب... لم يفِه الصبي بشيء ، وانشغلَ يتابع بعينِ الدهشةِ والفضول. واستمرت أصوات الدفوف تخترق الهواء ، وتتتالى... المزمار يعلن هيمنةً هارمونية مع الآلات. وبدا أنَّ التعب أجهدَ العازفَ مثلما

أنهكَ الضاربين الدفوف والاصناج، وبدت الشمس تشعر بإرهاقها فشرعت بالانسحاب، ولم يفقه الصبي المتسائلُ سرَّ العصي الخشبية القصيرةِ الغليظة "المتكوِّمة" وسط التحلّق ، ولماذا رُفِعَت من قبل الراقصين إلا بعد أنْ واجه كلُّ واحد غريماً له وراحوا يؤدون رقصةَ المبارزة والضرب على الرأس.

ولقد دُهِشَ عندما أبصرَ الدماءَ تتفجَّر من الرؤوس وتسيلُ على الجباه ممتزجةً مع نزيف العرقِ والصرخات تتعالى من الحشد ، والمتعة تشيع في الأنحاء فيعمُّ صوتُ المبارزةِ الخشبية ويستمرُ نفيرُ المزمار مع ضرباتِ الطبل الكبير... ويطالعُ الرجلُ الخمسيني حيثيات الطقسِ الماثل فيثملُه إحساسٌ بالرضا ، مثلما يُقرر إيقافَ الضربات على الطبل إيذاناً بالختام ، وليترك للمتبارين فرصةَ احتضانِ احدهم الآخر وسط اندفاعِ الحشدِ إليهم والدخول بينهم مشاركةً للمتعةِ الكبرى ، وانتظارِ عامٍ جديدٍ مُقبل.....

زلة – ٢٠٠١/٨/١٣

عراء الشيخوخة

(١) فرار الغزلان

هربت غزلانُ الأعوام عن ناظريه واستحالت أشباحاً. فلولاً يراها تتبعثرُ على شاشة الذاكرة الشاحبة ؛ وهو الصاغرُ العاجزُ عن الإمساك بها ومنعها من الابتعاد عن حقول الآمال التي تمنّاها ملازمةً لمسيرته في الحياة.. هربت ولّما يزلْ يشعر أنّه لم يرَ من الدنيا شيئاً ، ولم يُشبع عينيه بما يتجسَّد من تبدّلات.. يتلمّس الأشياءَ تتغيَّر في بهرجة وابتهاج ، والأجيال الحاضرة أمام ناظريه تنهضُ من تحت ناصية أعوامه الستين متهاديةً على خميلة الجديد من المُتحقَّق: قمصانٌ مهفهفة ، وبناطيل جينز ضيقة. playstation و internet ، موبايل وجِل (يومَ كان في مثلِ أعمارِهم كانت النحافةُ تقارع طولَه الفارع. القميص بمصاحبة البنطلون لا يمثلان اكسسواراً لشاب يُفترض أن يعيش طائراً يفعمه الجذل ويغمره الابتهاج إنما ثياباً خاطها خياط مغمور في

قيصرية متهالكة. وآن وقف أمام المرآة بعد ارتدائها شاهد شاباً شاحباً ، مُصفرّاً ، تعيساً لا يمكن إلا أنْ يُثير التفكّه في عيون الآخرين ، بيدَ أنّه أثر تقبّل الحال. فليس له إلا أنْ يرضخ لرحى الفقرِ تسحقه ، ولأنيابِ القهر تمزّق تطلعاته).. يضرب بقبضته الراعشة على فخذه الضامر : آخ ، لو ينتهي هذا الإرهاب اللعين! لو يعود المخدوعون بعودة الإسلام يافعاً كما قبل أربعة عشر قرناً! لو يرفعوا الرؤوسَ من رِمال الوهمِ ويبصروا الدنيا كيف ترفل على بساط السماحة والنقاء! لو..... أوه ، يا إلهي! كيف هرَبت أيامٌ ستحسبُها علينا يومَ حشرك؟ (يتذكر أنّه يوم كان في أعمار هؤلاء - الموهومين بجنان لا وجود لها إلا في أذهانهم - يصاحب زمرةً من الشبابِ يَسمعَهم يتحدَّثون عن الديالكتيك والحتميّة لسيادة الطبقة العاملة مسنودةً من الفلاحين حديثاً ببغاويّاً وهو يرى واقعَهُ بلا عمال ولا فلاحين ، فقط بطالةٌ وعجز وفاقة وأميّة ترفل على ثرى العماء العميم فينتابُه شعورٌ بالغثيان ، وترتسمُ إزاء عينيه شعوباً بائسةٌ ذليلةٌ متخاذلة لن تخرج من نفق العتمة مطلقاً.).

يجهش منتحباً ، ويتوقف يائساً..

يمسح دموعاً دافقة على خدّيه الأعجفين مُتلمِّساً

غـزلان الأعـوام تهـرب مـن ناظريـه مـستحيلةً أشـباحاً.. وهناك!

هنـاك في الـشمال ، يـرى أمَمـاً تعـيش الرفـاه والجـذل والابتـهاج بينمـا أمّتـهُ يـسيل لعابُهـا علـى سـعادتِهم كمـا يسيلُ لعابُ كـلاب متضورة حِرماناً على عظامٍ تكسوها الشحومُ اللذيذة.

(٢) سليل التهالكات

أسعده رؤيـة حفيـده يفـوه بـأولى المفـردات الـتي تـضعه على أولِ درجة مـن سلَّم الحيـاة ، وابتـسمَ لـسماعِ الحفيـد يخاطبـه بمفـردة (جـدّو) والجـةً مملكـةَ سمعـه نغمـةٌ تـسكب عذوبةً في فضاء روحه غائرةً عميقاً إلى الـدهاليز القـصيَّة ، إلى أولِ عامين يجتازهما مـن عُمـرِه (يستعيد الآن بـذاكرة متوهجة كلمة بابا التي كان ينطقها مخاطباً أبيه ، فـيروحُ الأبُ يتلقَّفـه بابتـسامة تعكـس فـرحَ عـالَمٍ مـن الانـشراح العارم ، وتمتد يداه العظيمتان ترفعانه وتقذفانه في الهواء ثم تستقبلانه بشوق جارف كأنه شوقُ تربة ظامئة لغـديرِ مـاء دفيق. يضمُّه إلى صـدرِه حاصـداً سـنابلَ فـرحٍ لا يُقايـضُها بأموالِ الدنيا كلِّها. يُشبعه بالقُبل ويغترفُه باللهفـة ، إذ يـرى

فيه الأماني التي يُريد والمستقبل الذي يروم).. مُفردة "جدّو" التي بقدر ما يشعر أنها تفجِّر في قلبه الحبَّ للحفيد فإنها تشيع في روحه حقلاً من الألم الساحق الماحق وفضاءً من اليأسِ المرير القاتل. فالذي سيأتيه من قابلات الأيام لا توحي بغيومِ الطمأنينة تدرُّ مطرَ الهناء ونسمات البهجة ، ولا تزرع على الدرب الطويل ورودَ تحقّق الرغبات ونيلِ المسرّات. فأمّةٌ يعيشُ في ثنايا خطوها لا تبغي الخروج من خيمة الظلام ولا تسعى لمعانقة النور. فقط تمارس دس رأسها في رمال الماضي الميت ويتلذذ أفرادها بتعذيبها من قِبل متسلطين لا يُفكرون إلا بأنفسِهم (أراده الأبُ طبيباً يتباهى بأنَّ له ابناً يخدم الإنسانية. يتعذَّب لعذابِ المسحوقين ويتألَّم لألمِ المَرضى فيجدُ جدّاً يخلقُ تميّزاً يرفعُ من خلاله رايةَ بلاده عالياً. لكنَّ الحروبَ المتتاليةَ والبغضَ الكريه والأطماعَ المتناسلة وهدرَ المال العام وضياعَ الفرص الكبيرة لانتشال البلاد من مستنقعِ الإعاقة المزمنة سحقت أماني الأب) تركت الابنَ نزيلَ اليأس الكامد. الابن الذي غدا اليوم جدّاً يحاصرُه الإرهابُ من كلِّ مَكان وتلاحقه براثنُ الفَساد أنّى توجَّه لتحطم لديه أيَّ أملٍ يتمنّاه لحفيده الذي لا يرى أمامَه درباً منفتحاً كما يأمله بنو البشر الذين ركبوا قطارَ النور مروراً

بمحطّات الجذل وصولاً لحديقةِ العيشِ في دنيا الجَّمالِ التي بلا حدود.

(٣) وِباء الوهم

لا شيء أمامه سوى الفواخت تتَّخذ أغصانَ سدرةِ حديقة بيته مكاناً لتفجير لوعتها وحنينها لأخواتٍ ضيَّعتها الأقدارُ ونأت بها مرارةُ الزمن. ولا أنيس سوى الظلال الميتة تستقبلُه حالما تترك قدماه العتبة التي تسلِّمه للحديقةِ حيث يلجأ نفضاً لثقلِ ساعاتِ العزلة في بيت غدا كينونةً دائمة هجرتها زغاريدُ السرور يوم غادرها الأبناءُ فاستحالت بنظرهِ مكمنَ أوجاعٍ ومقبرةَ ترانيم.

لا شيء سوى ملامح تلك التي قضت معه عقوداً من الأعوام ثم رحلت وعلى شفتيها نصيحةٌ أو رجاء أنْ لا يبقى قابعاً في البيت أسيرَ الهمومِ والهواجس بل الخروج إلى طُرقات الله حيث الذكريات الجميلة التي صرفاها زوجين حميمين أطلقا الأبناء طيوراً في فضاء الحياة الرحيبة وواصلا مساراً تتَّخذه الإنسانيةُ ولو على مضض.

خرج على هَدي دربٍ يقول له تحرَّك بما تملك ساقاك

من قوَّةٍ يعينانك على السير ، وما تبقى في قلبك من رغبةٍ في البقاء.. مرَّ من أمامِ مدرسة تركها تلميذاً في المرحلة الابتدائية يوماً ، وجاء إليها أباً يقود ثلاثة أولاد عاماً بعد عام ليواصلوا مشوار العلم والمعرفة ، ثم دخلها وهو يحثُّ حفيداً على الالتحاقِ مع أقرانٍ له في عمره.. مرَّ من أمامها اللحظة فكانت بلافتةٍ مهشمةٍ وقد زال طلاءُ تاريخِ تأسيسها الذي قرأهُ مراراً وهو يشيرٍ إلى العام ١٩٥٨. لم يسمع أناشيدَ التلاميذ التي كانت تصدح آنذاك بحبِّ الوطن وطلب العلم وحياكة خيوط الشمس سعياً لإدراكها.. لم يسمع "عش هكذا في علوٍّ أيها العلمُ" ، ولم تتناهَ إليه قرقعةُ أقداحِ الألمنيوم يحملُها التلاميذ مع كعك المعجَّنات كفطورٍ صباحي فتذكَّر أنَّ سوسةَ الفسادِ تعيثُ في ثمارِ نخلةِ العلم التي كانت فارعةً ، سامقةً ، عذراء.. أطلق حسرةً طويلةً كلسانِ ريح ، واستدعى دمعتين تركهما تتدحرَجان على خدّيه المتغضنين.

راح يواصل سيرَه بعينين تسوحان لهفةً إلى ماضٍ بعيد ورغبةً في غدٍ واعدٍ رحيم. واصل! حتى أدرك سوقَ الخضار الرئيسي. دخله! وكان عليه أنْ يتملّى الماثل فلم تتكحَّل عيناه بما يسرُّه من صورٍ وما يُبهجه من تعامل.. رأى أساليبَ عرض الخضار والفواكه بسلالٍ متهرئة وأوانٍ

معدنية قذرة هيَ ، هيَ التي كان يراها وهو فتى ، وهو شاب ، وهو كهل... هي ، هي مجاميعُ الذباب تتطاير أو تحوم أو تحط فوق الطماطة والباذنجان والباميا والبصل والتمر والتفاح والبرتقال والرمان... هوَ ، هو ذلك الذي يبيع اللحوم ويتمخَّط ويبصق أمام الزبائن منهمكاً بتقطيع شرائح اللحم أو منهالاً بالساطور على عظم يبغي تهشيمه... هوَ ، هو بائع الرقّي يرفع عقيرته لإغراء المارّة ثم يروح ينشغل بحك باطن قدمه الحافية الموحلة أو المتربة بنصل السكين الذي يفتح به الرَّقيّة المُشترات..

مُنسلاً يتركُ حشودَ المتسوِّقين المتزاحمين ، مشحوناً بوباء الوهم في مجتمع ظنّه يوماً أنّ سيمسك صولجان الحضارة ويرفل على إيقاع العيش الحيي بلافتة يرفعها حبّاً بالنظافة وهَدياً بالنقاء.

السماوة- تموز ٢٠١١

صدر للمؤلف:

- (مدينة الحجر) عن اتحاد الأدباء والكتاب في العراق ١٩٩٣
- (حكايات عن الغرف المعلقة) قصص قصيرة جداً عن دار أزمنة عمّان ٢٠٠٣
- (أمي والسراويل) مجموعة شعرية عن دار أزمنة - عمان ٢٠٠٤
- (فضاءات التيه) مجموعة قصصية عن دار عن دار ألواح في اسبانيا عام ٢٠٠٤
- (فراسخ لآهات تنتظر) رواية عن دار ورد – عمان ٢٠٠٦.
- (سبت يا ثلاثاء) رواية عن دار أزمنة – عمّان ٢٠٠٦
- (اش ليبه دش) مجموعة قصصية عن دار تراسيم – بغداد ٢٠٠٨
- (من الأدب الروائي – دراسة وتحليل) كتاب نقدي عن دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ٢٠٠٨
- ٢٠٠٩ يصدر مجلة (تراسيم) التي تعنى بالقصة القصيرة جداً ويرأس تحريرها. وهي أول مجلة عراقية تعنى

بالقصة القصيرة جداً.

❖ (طريق ضيق باتجاه الشمال العميق) مسرحية مترجمة للكاتب الانكليزي ادوارد بوند ٢٠٠٩.

❖(أسفل فنارات الوقيعة) كتاب قصصي عن دار الينابيع – دمشق يضم مجاميعه القصصية الثلاث (مدينة الحجر) و(فضاءات التيه) و(إش ليبه دش) ٢٠٠٩ .

❖ (فراسخ لآهات تنتظر) رواية بطبعة ثانية عن دار الينابيع ٢٠١٠.

❖ (الرؤى والأمكنة) كتاب من ذاكرة المكان عن دار الينابيع ٢٠١٠.

❖ (سبت يا ثلاثاء) رواية بطبعة ثانية عن دار الينابيع ٢٠١٠.

❖ (فتى أوروك) قراءات نقدية عن أدب زيد الشهيد لنخبة من الناقدين الأكاديميين والأدباء العراقيين تقديم وتحرير د. فاضل عبود التميمي عن دار تموز – دمشق.

❖ (أفراس الاعوام) رواية عن دار تموز –دمشق ٢٠١١

الجوائز :

- الجائزة الأولى في مسابقة (تموز الكبرى) التي إقامتها صحيفة (الجمهورية) – بغداد عام ١٩٩٣.
- الجائزة الأولى في مسابقة (الأدباء التربويين) في الشعر التي أقيمت في محافظة واسط ٢٠٠٧.

- الجـائزة الأولى في مـسابقة (جعفـر الخليلـي) للقـصة القصيرة التي أقامها اتحاد الأدباء فرع النجف ٢٠٠٩.
- الجائزة الأولى في مسابقة (عبد الإله الصائغ) في القصة القصيرة التي أقامتها مؤسسة النور في السويد ٢٠٠٩.
- الجـائزة الثانيـة في مـسابقة القـصة الـتي أقامتهـا دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ٢٠٠٩.
- الجائزة الثانية في مسابقة هيئة النزاهة العامة الأولى ٢٠١٠
- الجائزة الاولى في مسابقة الرواية دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ٢٠١١

بريده الالكتروني:

zaidsamawa@yahoo.com
zaid_samawa@yahoo.com